2272
8858
333

2272.8858.333
al-Qudsī
al-Fann alladhī yahtājuhu
al-sha'b

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 074489236

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

الفن الذي يحتاجه الشعب

الأدب العربي كفن

الموسيقا والغناء

الشعر والموسيقا

النحت والتصوير

الزخرفة والعمارة

السينما والمسرح

الإذاعة ورسالتها

بقلم

محمد كامل القدسي

المفتش الاختصاصي للموسيقا بوزارة المعارف
مدير المعهد الموسيقي الشرقي بدمشق

محمد خير الدرع

مدرس اللغة العربية
في ثانويات دمشق

al-Qudsī, Muḥammad Kāmil

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

الفن الذي يحتاجه الشعب

الموسيقا والغناء
الأدب العربي كفن
الشعر والموسيقا
النحت والتصوير
الزخرفة والعمارة
السينما والمسرح
الاذاعة ورسالتها

al-Fann alladhī yaḥtājuhu al-sha'b

بقلم

محمد كامل القدسي
المفتش الاختصاصي للموسيقا بوزارة المعارف
مدير المعهد الموسيقي الشرقي بدمشق

محمد خير الدرع
مدرس اللغة العربية
في ثانويات دمشق

حقوق الترجمة والطبع والنشر والاقتباس
محفوظة
لدار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - سورية

الاهداء

الى ذلك الفنان المجهول الذي عرف رسالته فقدرها حق قدرها ، وظل أميناً لها طيلة حياته ، لم يغره مجد زائف ولا صرفته عن طريقه لذات تافهة .

الى ذلك الانسان النبيل ، الذي يحمل في صدره حب عيسى وهدي محمد عليهما السلام نهدي هذا الكتاب .

المؤلفان

محمد خير الدرع محمد كامل القدسي

2.3.61 ALL (Islam)

2272
.8858
.333

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

خطر لنا أن نتعاون في اخراج كتاب عن الموسيقى والشعر يكون مرجعاً للموسيقيين والشعراء والأدباء ثم رائداً لكل مثقف محب للاطلاع على هذين الفنين بصورة خاصة وباقي الفنون الجميلة بوجه عام في بلاده ليرى إلى أي اتجاه نسير بهذه الفنون الرفيعة التي ما اهتدت اليها البشرية منذ العصور المتوغلة في القدم حتى زماننا هذا إلا لتكون طريقها للسمو الروحي والتهذيب الاخلاقي والترفيه عن النفس المثقلة دائماً بأعباء الحياة . وكدنا ننصرف لأول وهلة عن هذه الخاطرة قبل أن نفكر بما يمكن أن يترتب عليها من خدمات لمجتمعنا الحائر الخائر ونوفر جهودنا في سبيلها لانتاج آخر كل ذلك بسبب ما نحسه في أعماق نفسنا من ثورة عنيفة على وضع الفنون جميعاً في بلادنا . هذه الفنون التي عشش فيها الفساد وأفرخ حتى صارت بؤراً للرذيلة ومأوى للتهتك وأضحت بهذا خطراً على المجتمع وحرباً على مقوماته الروحية وعلى البقية الباقية له من رجولة وعزة وحيوية وعنفوان رغم أنها ما كانت يوماً من الايام إلا برداً وسلاماً للشعوب الحية الناهضة. فهل تغيرت هذه الفنون وانحرفت برسالتها الاصيلة عن الطريق السوي أم انحرفت

بها النفوس المريضة واستعملتها في غير ما خلقت له فزادت بهـا مرضاً على مرض وخبالاً على خبال وكانت بذلك كالحمرة التي يعب منها اليائس الموتور عباً شديداً لينسى عن طريقها واقعه الأليم فاذا بها تقصر أجله وتورثه الداء العضال ..؟

أحسب أن الامر الثاني هو الصحيح بالنسبة لمجتمعنا المريض.. أجل المريض الذي أنهكته حمى الفقر والجهل والمرض وكابوس الاستعمار الذي تواصل ردحاً من الدهر أناخ فيه بكلكله عليه وتمطى طويلاً ثم لم ينجل عنـه إلا بعد أن ترك فيه أنواعـاً منوعة من جراثيمه الوبيلة ليلهيه بها عن النهوض مرة ثانية بوجه الحيـاة لأنه يريده قزماً ممسوخاً يعرج أمامه على رجليه فيشبع بمنظره المضحك لهوه ويرضي غروره حتى إذا خجل هـذا القزم من نفسه وأراد أن يصلح من مشيته ويتخلص ممـا علق به من أمراض استعداداً للوثوب شغله بمأساة جديدة من وراء الاستار فعـاد مرة أخرى لحيرته ويأسه وحاول أن يغرق آلامه في اللذائذ الفانية هرباً من الحقيقة المرة منتظراً أن تأتيه الحياة بيقظة جديدة تتشوق لها أعماقه ويعيش بحبها في عقله الباطني. وهكذا يدور مجتمعنا المريض في حلقة مفرغة لا يدري من أين تبدأ وأين تنتهي ولا يعرف إذا كان سيدرك هـذا يوماً أو لا . ومع ذلك فان بعض المتفائلين من أفراده يغالطون أنفسهم كمن أصيب بمركب النقص فأضحى يتظاهر بالشجاعة وهو من أجبن النـاس وبالعلم وهو أجهل الخلق وبتذوق الفن وهو من أبعـد العالمين عنه . ومن هـذه الفئة الضالة جاءت الطامة الكبرى لأنهم لا يعرفون أنفسهم على حقيقتها فكيف يستطيعون معرفة مجتمعهم وإذا عرف الانسان نفسه استطاع أن يعالج ما فيها من ضعف وإذا عرف مجتمعه استطاع أن يكشف ما فيه من أمراض قـد يتيسر له أن يصف لها الدواء .

فنحن إذن لسنا متفائلين من وضعنا الحاضر وبعبارة أخرى لسنا راضين عن

مجتمعنا المريض ولا عن الفن الهرم الذي يمشي فيه على عكازتين هما الميوعة السائلة والشهوة الحيوانية . وعدم تفاؤلنا ورضانا هذين هما سبب ترددنا في معالجة أمر استفحل خطره وكادت تذهب عليه الأنفس حسرات . فأصبح الادمان عليه كالادمان على التدخين الذي أصبح شره وضرره معلومين لدى جميع طبقات الناس ومع ذلك فالكثير منهم مبتلى به بحكم العادة أو التقليد . غير أننا غيرنا رأينا بعد فترة من الزمن ورأينا قدسية الواجب تدفعنا للنضال دفعاً وبدت نبذة من الأمل تشرق في جوانب ذاتنا هاتفة بصمت وهدوء : إن العادة والتقليد مرضان يمكن التخلص منها والانسان المريض الذي أوهنته العقد النفسية يمكن أن يشفى إذا كشفت له عن العلة الاولي لسقمه وغيرت مفاهيمه للأشياء ونظرته السائدة للحياة . والمجتمع المريض في طريقة علاجه أشبه بالانسان المريض لأن الحقيقة التي يصح اطلاقها عليه أنه مجموعة من البشر زادت فيه نسبة المرضى على الاصحاء. وعلى هذا فقد توخينا من كتابنا هذه الغاية أولاً ثم رفع مستوى الفن في بلادنا ثانياً لا سيما الموسيقى والشعر منه ليقوما برسالتيهما على أكمل وجه .

محمد خير الدرع محمد كامل القدسي

الفَصْلُ الأوّل

(١) الفنون تدعو للفضيلة

(٢) رسالة الفنون

١

الفنون تدعو للفضيلة

لا شك أن رسالة الفنون الجميلة هي رسالة الاخلاق والفضيلة وأن الفنان رائد من رواد البشرية عليه أن لا يكذبها ولا يغشها . عليه أن يكون قدوة لها في الحفاظ على المثل العليا والخلق الرفيع . أما حين تصبح الفنون الجميلة حاملة لواء الرذيلة داعية لها منبهة للغرائز الحيوانية في الانسان داعية للخروج على التقاليد والدين والاخلاق فتباً لها وتعساً من فنون ولا يمكن أن تكون إلا قبيحة حينئذ لا جميلة وعلينا أن نغلق معاهدها ونقضي على أوكارها لنعيش بدونها قانعين بما يتوقع أن نوصم به من رجعية وجمود فيها لنا كل الخير لأننا بحاجة ماسة إلى شيء من الاستجمام من أمراضنا المستعصية لا إلى ما يزيد من أثقال هذه الامراض . إن ما نحن فيه الآن في فنوننا ليدعو إلى غض العينين من الخجل فقد تحولت معاهد الفنون ونواديها إلى معارض للنساء العاريات ومتاجر للاجساد الرخيصة والانسياق وراء عبودية الشهوة حتى أصبحت هذه الفنون ثورة على الاديان كلها لا على الاسلام وحده أو النصرانية وحدها لأن جميع الشرائع وإن تعددت واختلفت في جزئيات الأمور إلا أن مصدرها واحد وهو الله سبحانه وهدفها واحد وهو صيانة كرامة الانسان وتعزيز المثل العليا عنده . ولذلك هبطت رسالة هذه الفنون فبعد أن كانت في نشأتها لتدعيم الروح الديني وتقوية الاخلاق إذا

بها تصبح نكبة على الدين ووبالاً على الاخلاق وسبباً لاجتماع الشباب البريء في سن مبكرة بالبغايا . وأين ؟ في الاماكن الرسمية. في معاهد للعلم ومجامع للفن — إني أشعر عند هذه الفقرة أن هناك عيوناً تدور دوران استغراب وكأنها تتساءل. ألسنا في هذا مثل غيرنا من الامم الراقية ؟ إني أقول لأصحاب هذه العيون حقيقة أن ما نشكو منه اليوم مما يسمونه تمدناً وتجديداً قد أقرته أوربا منذ زمن بعيد ولكن هل نحن ملزمون بأن نسلك الطريق التي يسلكونها في كل شيء وإذا كان الأمر كذلك فلماذا نقلدهم في الخلاعة والرقص وأنواع المجون ولا نقلدهم في تقدير الواجب والصدق في المعاملة والتقدم في الاختراعات والتعمق في العلم والمعرفة ؟ ثم من قال بأن مدنية الغرب هي المثل الأعلى الذي يجب أن نحذو حذوه وكل المظاهر تدل على أن هذه المدنية آخذة بالتدهور والانهيار لأن أهلها أهملوا الاخلاق والدين . إن الاسلام طلب إلينا أن نأخذ الحكمة ومعروف ما هو المراد من كلمة الحكمة في قوله : الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها — فلنأخذها من أي أمة كانت فليس في ذلك أي خطر إنما الخطر أن نصل في تقليدنا لما تنبأ لنا به الرسول عليه السلام كلما امتد بنا الدهر حيث قال لتتبعن سنن الذين من قبلكم (يعني الأعاجم) شبراً بشبر أو ذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه. فينبغي أن يعلم المشرفون على شؤوننا أن لنا تقاليدنا وعقائدنا وللغرب تقاليده وعقائده وعلى هذا الاساس عليهم أن يتخيروا ما يصلح لنا ويطرحوا ما عداه . أما أن نقلدهم التقليد الاعمى في كل شيء عدا الأمور الجدية فهذا هو الضلال المبين . وقد نصير حينئذ إلى حالة مضحكة تشبه حالة الغراب الذي استحسن مشية الحجلة فحاول أن يقلدها ليصبح مثلها وبعد أن أمضى فترة طويلة في التمرين ويئس من اتقانه شيئاً لم يتيسر له أراد أن يعود لطبيعته راضياً قانعاً فاذا به قد نسي مشيته الاولى وهكذا أصبح ذا مشية مخلعة مضحكة لا هي مشية الحجلة ولا هي مشية الغراب .

٢

رسالة الفنون

نعتقد أن في الامكان تحويل ما عليه الفنون الآن من تدهور وانحلال إلى عامل من عوامل النهضة في أمتنا العربية ونؤمن تماماً أن رسالتها في المجتمع يمكن أن تسير جنباً إلى جنب مع رسالة الدين والاخلاق وإلى غاية واحدة هي إنشاء جيل صالح ذي روح عالية وخلق متين . وقد حصل ذلك بالفعل أيام نشوء الحضارة الاسلامية إذ أمكن للفن الفارسي والروماني أن يخضعا للتقاليد الاسلامية والاوامر الدينية ولم يمنعه ذلك من الازدهار وتسجيل الكثير من الموضوعات القومية دون حاجة الى اظهار الاجسام العارية والتبذل في الفن . ولقد كان أفلاطون يرى أن الفن يجب أن يخضع للأخلاق ولا يسمح منه إلا بما يعين على الفضيلة فلا يكفي أن يكون الشيء جميلاً ليعرض ويسجل وإنما يجب أن يكون على جانب عظيم من النبل أيضاً لأن الغاية من الفنون كما ذكرنا آنفاً هي تهذيب الشعب والارتفاع بمشاعره والتسامي بغرائزه ولهذه الغاية نفسها أدخلتها الحكومات كمادة أساسية في برامجها التعليمية والتربوية . وهذا عينه هو ما يريده (وسكن) بقوله « لا يمكن أن يكون جميلاً إلا ما كان حقاً » . فهل من الحق أن تسير الفنون بجميع ألوانها : الموسيقى والتصوير والنحت والمسرح والشعر في سرداب واحد مظلم تفوح منه رائحة العفونات وترتكب فيه تحت أضوائها الخطايا

والموبقات فتكون هي الوسيلة لهذه الخطايا والموبقات لأنها تدور حول موضوع واحد هو إثارة الغريزة الجنسية في الآدميين ؟ وهل من الحق أن يلون الفنان انتاجه بهذه الاصباغ القاتمة طمعاً في أن يقال عنه يوماً فلان فنان ؟ لقد انطلت هذه الخديعة الكبرى على أوسكار وايلد الكاتب الشاعر العظيم في أوائل حياته فسار معها إلى آخر شوط وذاق ألوان المتع معتقداً أن ذلك من مستلزمات الفنان ليغذي به فنه كما هو ظن أكثر فناني بلادنا اليوم حتى إذا زلت به القدم ذات مرة وحكم عليه بالسجن في شذوذ أخلاقي كتب كتابه (**من أعماق السجون**) الذي توج به انتاجه وكان فيه أصدق وأصرح منه في كل ما كتب حتى طبع أكثر من ثمان وثلاثين مرة ومما قال فيه معترفاً « وهبتني الآلهة كل شيء تقريباً ولكنني أرخيت لنفسي العنان فجمحت بي في ميدان الراحة الشهوانية وتسكعت في الغواية وتماديت في البطالة وأحاطت بي نفوس حقيرة وأحلام صغيرة فأمسيت مبذراً في عبقريتي ومواهبي وخدعتني تلك اللذة التي شعرت بها في إسرافي بنشاطي وشبابي المتلىء حياة ويقظة . ولقد مللت اعتلاء الذروة ففتشت في الاعماق عن شعور قشيب وما كان مناقضاً لي في محيط فكري مرق وأضحى مناقضاً لي في محيط رغائبي. وأما الشهوة فكانت في النهاية مرضاً أو بلهاً أو كليهما معاً. لقد تركت المسرة تسود عليّ ولكنني ختمت دوري بالخزي والعار ولم يبق لديّ سوى شيء واحد هو التصاغر والاتضاع » .

لقد عرف بعض الفلاسفة الفنون بأنها : ابتكار في اتساق وانسجام وانتظام وجعل غايتها حب الجمال لبلوغ الكمال الذي يتوخاه الانسان في هذه الحياة ومنهجها الذوق خاصاً كان أو عاماً كما وانه قرر أن تاريخها يتعلق بتاريخ الكون فأولها أوله وآخرها آخره يعتورها ما يعتوره من تدهور وانحطاط ورقي وعظمة فهي صنوه الوحيد الذي ينتهي بنهايته . وهي أيضاً العلامة الوحيدة التي تسمو بها

الانسانية على الحيوانية فما يسمد الفنون يسمدالبشرية وكل محاولة يراد بها التقليل من شأن الفنون تكون محاولة مجرمة تعرقل التطور البشري ولذا لزم أن يكون أقرب النـاس من الفنون أنضجهم انسانية ولا يمكن أن يكون الانسان إنساناً بكل ما في هذه الكلمة من معنى إلا إذا اتصل بهـــا . والجمال هو مزج القوة بالعطف وجعلها شيئاً يعبر جميعه عن الارادة الأكثر عذوبة ورقة وهذه الارادة تظهر في معاناة الاشيـاء الجدية التي تهم حياة الانسان لأن النفس تسمو إلى أعلى ما تعجب به . ومن هذه الناحية تجد الفن يلمس الحقيقة الصادقة بل الحقيقـة وحدها وهنا يتحقق مثل أفلاطون القائل « إن الجمال هو أن تغدو أحسن وأعلى». إن الذي نبه الطائر فغرد وأيقظ الفراش فحوّم واستخف النحل فطافت بين الرياض هو الجمـال . الجمال الذي أنطق شعراء الوجود بتلك الاناشيد الخالدة المتغنية بجلال الكون ومجد الحيـاة كما انه هو الذي استثار أفكار الجبابرة ومهد للانسانية سبيل الرقي . فالناس جميعهم يستجيبون للفن وينقادون للجمال أو هم على الأقل يطربون للموسيقى . وما كانوا يملكون إلا هذا ما دام في الحيوان ما يغني كالكروان والبلبل،وما دام فيه ما يستجيب للصفير كالثعبان،وليس غناءالكروان والبلبل واستجابة الثعبان وطربه للصفير إلا بشيراً بالفن أو بأنغامه على الأقل بشرت به الحياة الخلائق في الحيوان وحققته تحقيقاً تاماً على يد الانسان .

غير أن الناس ليسوا سواء في شيء من الاشياء فهم لا يصنعون في مصنع فيه آلات وقوالب وإنمـا تخرجهم إرادة خالق مبدع يأبى أن يتكرر خلقه لأن التكرار على نسق واحـــد لا يتناسب مع حقيقة القدرة الكاملة والابداع اللامحدود ورجل الفن هو المقلد الاصغر للمبدع الاكبر يدرك أن الفن إنمـا يعيش بالاسلوب الذي هو المنبع الأزلي لفنـه والتناسق والتناسب هما صفـات الاسلوب السليم لكل عمل فني عظيم وإذا كان الناس ليسوا سواء في تكوينهم

الفني فكذلك أيضاً ليسوا على حظ واحد في الشعور بالجمال أو بكيفية إصابة اللذة منه . كما أن مظاهر الجمال المختلفة ليست عند الناس بدرجة سواء فمن الناس من لا يروعه إلا منظر البحر وقد اشتد وتدافعت أمواجه، ومنهم من لا يبهره إلا الزهر وقد اختلفت ألوانه وفاحت بالعبير أردانه، ومنهم من لا تخلبه إلا الموسيقى فهي تريه آي الجمال وتتلاعب بعواطفه كما تشاء . ولولا هذا الجمال المنبث في ظاهر الكون وطواياه لاتخذت الانسانية سبيلاً آخر غير هذا الذي تعرفه اليوم ولحرم العالم من ثمار خالدة أنتجتها العقول وقد نرى أن الغالبية في الناس لا تكتمل شخصيتها إلا بالحب لأن الحب بين التجارب الانسانية هو أقوى تجربة فيها من القوة ما يقوى على تحطيم أقسى القيود واختراق أعظم الحواجز وهو لازم لتفهم المرء نفسه وإمدادها بالحيوية والآمال ولتمهيد السبيل له لفهم الآخرين . ذلك لأن كل ما في الطبيعة من جمال لا يسر المرء بقدر ما يسره إنسان آخر يرتاح اليه ويجلس إلى جانبه . إنسان يحبه ويريد الاندماج فيه . غير أنه يوجد من الناس من يتغلب على هذه النزعة فيوفق إلى تصعيدها من الحب المعنوي إلى ولع ببعض الفنون فتهواها النفس ويهتم بها لدرجة لا تقل عن ولع المرء بمعشوقته وتلهيه عن كثير من شؤون الحياة فيصبح الفن الجميل لهذه النفس رمزاً معنوياً للمعشوقة المفتقدة . وهناك من الناس من استطاع تصعيد النشاط الغريزي المجموعة الجنسية الكبرى ـ بمركباتها كلها ـ من عالم الحس والمادة إلى عالم الفكر والمعنى. غير أن المرء مهما بلغ وأمعن في وسائل التسامي لا يستطيع تصعيد كل قطرة من ينبوع النشاط الغريزي إلى سماء المعنويات بل لا بد من بقاء كمية من ذلك النشاط على الفطرة تلتمس لها مخرجاً طبيعياً من حين لآخر . ولعل حياة كل من المعري وبيتهوفن من أبرز الامثلة على مبلغ ما وصلت اليه جهود البشر في وسائل التصعيد والتسامي بالغريزة الجنسية ورفعها من مستوى الشهوة البهيمية إلى سماء الفلسفة

والعلم والفن . وإنه لمن دواعي الحيرة استطاعة بعض الافراد تصعيد غرائزهم الفطرية وتوفيقهم في ذلك دون البعض وربما كان الاستعداد الطبيعي أو ظروف البيئة أو بعض الاعتبارات الشخصية دخل كبير في هذا التوجيه إذ ليس من المستبعد أن يكون ما أصيب به أبو العلاء من فقد البصر في طفولته على أثر إصابته بالجدري وما أحدثه هذا المرض في وجهه من تشويه من أهم العوامل التي صرفته عن الزواج والنساء وحملته على أن يولي وجهه شطر عالم المعنى ملتمساً من سمائه زواجاً روحياً يحقق للنفس ما ضاع عليها من انتاج مادي عن طريق الزواج بخلود معنوي عن طريق الانتاج العقلي .

ومما يروى عن بيتهوفن أنه كان دميم الخلقة ولم يكن في حياته الجنسية موفقاً مع النساء وقد أصيب في حبه بصدمات صرفته عن الزواج ودعته إلى كبت هذه العاطفة القوية في نفسه ثم الالتجاء إلى تصعيدها بتحويلها إلى غرام وولع بفن الموسيقى فحصر كل جهوده الحيوية ونشاطه الغريزي في الاشتغال بهذا الفن الجميل الذي اتخذه رمزاً للزوجة الصالحة التي كان ينشد اخلاصها فمن ضمن مؤلفاته المشهورة (**أوبرا فيديليو**) التي أودعها ما كان ينشده من عواطف الاخلاص التي افتقدها في المرأة خلال حياته العملية فجاءت أصدق صورة للتعبير عن هذه العاطفة المكبوتة في نفسه ولم يكن بيتهوفن يجهل أنه حين وضع تلاحينه كان يعبر عن نزعاته الغريزية المكظومة فمن أحاديثه المأثورة ما ترجمته « لماذا أكتب ؟ إن ما يكنه فؤادي لا بد أن يجد له في الحياة مخرجاً وهذا هو السر الذي دفعني إلى التأليف » فقوله ما يكنه فؤادي يعبر عن نزعاته المكبوتة وقوله لا بد أن يجد له مخرجاً تعبير عن ظاهرة التصعيد وقد وجد بيتهوفن في اشتغاله بالموسيقى أعظم قسم من الترضية النفسية وأنبل وسيلة لارواء ظمأ العاطفة الجنسية المكبوتة من جميع نواحيها فان النشاط الجسماني والمجهود العقلي المنصرف في مزاولة الايقاع

يمثل المظهر الجسماني من الغريزة الجنسية ، والهيام والشغف بالفن يمثل عاطفة الحب المعنوي ، والتلحين والتأليف يمثل الناحية الخاصة بالنسل والانتاج . ومما لا جدال فيه أن هناك اتصالاً وثيقاً بين الانتاج الجسماني (نعني النسل) وبين الانتاج الفكري من الناحيتين المعنوية والمادية فما بينهما من صلة معنوية يتمثل فيما ينطوي عليه التأليف والاختراع من معنى الانتاج مع تخليد الذكر . فكما أن النسل استمرار للحياة المعنوية في صورة خالدة كذلك الانتاج الفكري ، بل ربما كان أبلغ أثراً في الاحتفاظ بالذكرى وخلود النفس المعنوية من الانتاج المادي فهو من هذه الناحية يحقق غريزة حب البقاء في صورة أسمى .

إن الطبيعة الفنية هي تلك الطبيعة التي تجعل فن الفنان جزءاً من حياته أياً كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر ومن الثروة أو الفاقة ومن الألفة أو الشذوذ وتمام هذه الطبيعة أن تكون حياة الفنان وفنه شيئاً واحداً لا ينفصل فيه الانسان الحي عن الانسان المتفنن وأن يكون فنه ترجمة باطنية لنفسه يخفي فيها ذكرى الاماكن والازمان ولا يخفي فيها ذكر خالجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الانسان فغاية ما تنزع اليه نفس البشر هو حب الجمال في كل فرع من فروع هذه الحياة لأن الفن إذا خلا من فكرة الجمال وهي الغاية التي نرمي اليها كما مر في مطلع هذا البحث فانه لا يعدو أن يكون جثة هامدة انفصلت عنها روحها . وليس من شك في أن للفن الجميل الذي هو اتحاد دوافع النفس وتوحيد قواها في اتساق وانسجام تأثير على شؤون الحياة الأخرى وترقية لمدارك الانسان وتقوية له على تصريف أمور الحياة والنبوغ في جوانبها . وهنا يمكن للانسان أن يتساءل عن الباعث الذي يبعثنا على ممارسة هذه الفنون فنقول : إننا لا نرضى برؤية الطبيعة ساذجة لأنها في سذاجتها ليست جميلة فلو كنا نأكل ونشرب في صحاف وأكواب من ذهب لما احتجنا إلى زخرفتها ولكن المواد التي تصنع منها

أدوات الطعـام والشراب ليست جميلة كالذهب والفضة فنحن نجملها بالفنون ولو كانت الاحجار التي نبني بهـا منازلنا حسنة تمتع العين برؤيتها لما احتجنا إلى أن نكسوها بالطلاء ونجملها بالرسوم ولو كان سواد الناس حائزين أقصى صفات الجمال لما احتجنا إلى صنع التماثيل ورسم الرسوم للوجوه الجميلة ولو كنا نتكلم فيلذ للناس سماع كلامنا كأنه الغناء لما تعلمنا الغناء ولو كان في حفيف الشجر وتغريد الطيور ما يقنعنا ويستهوي أفئدتنا لما احتجنا إلى الموسيقى .

فالذي يبعثنا على ممارسة الفنون إذن هو أننـا لا نجد غالباً في المواد الطبيعية ما تشتهيه نفوسنا من الجمال وإن وجد في بعضها فهو جمال ساذج لا تقتنع به النفس ونحنُ ندرك جمال الاشياء بالبصيرة لا بالعقل والبصيرة ألصق بالحيـــاة وأعرف بغاياتها من العقل ولذلك فنحن نجزم بأن الشجاعة والحب وتوخي الجمـال غايات ملهمة ترسمها لنا البصيرة ولكن العقل يخدمها بالعلم كرجل الفن يتوخى الجمـال ولكن يتوسل اليه بالصنعة فالعقل يصنع الآلة الموسيقية ولكن اللحن من شأن البصيرة . والعقل يدبر الالوان والاصبـاغ ويدرس كيمياءها للصورة ولكن البصيرة تكشف لنا سر الجمال فيها فالفن للبصيرة والالهام ، والصنعة والعلم للعقل ، وكلاهما ضروري للاتقـان . والفنون هي الصلة بين الانسان والطبيعة ففي الطبيعة إيقاع نرى مثله في الموسيقى والشعر والرقص، وصور الطبيعة وأشباحها من حيوان ونبات وجماد نرى مثلهـا في فني النحت والرسم. ولكن رجل الفن لا يقتصر على محاكاة الطبيعة بل هو يتجاوز حقيقتها إلى خياله ويتسامى بهـا إلى أرفع ما تلهمه اليه بصيرته لأنه ينظر إلى الطبيعة بعينيه هو وهاتان العينان تلقيان على ما يقع تحتها ظلاً يستمد من شخصية صاحبها وإن كانت في الاصل قـد قامت على المحاكاة . فمن الرؤية تنشأ الرؤيا ومن الحقيقة ينزع رجل الفن إلى الخيال. وإذن فالفنون في أدنى مراتبها محاكاة وفي أعلاها تفسير للرؤيا .

ثم إن الفنون متجانسة في غاياتها وبعض طبائعها وهذا التجانس يجعل رجل الفن محيطاً بالفنون جميعاً أو أكثرها أو واقفاً على غاياتها وإن كان جهله بالصنعة اللازمة لكل منها يعوقه عن ممارستها في غير الفن الذي يختص به. ونقطة الاشتراك بين جميع الفنون هي وحدة الاصل فيها، أي تلك البصيرة التي تنفذ إلى ما وراء المظاهر في الطبيعة فتفسر وتتخيل وتتسامى بهذه المظاهر. ومع أنها تنبع من معين واحد هو البصيرة فهي تبتعد أو تقترب من الذهن بنسبة متفاوتة، وأبعد الفنون عن الذهن هي الموسيقى الآلية لأن في الموسيقى الغنائية من المعاني ما يخاطب الذهن مما يجعل الاولى أكثر امتاعاً وأشد تأثيراً في النفس لاقتصارها على اللحن الذي يخاطب بصيرتنا ويطربنا دون أن يطالبنا بتعليل ذهني. وأقرب الفنون إلى الذهن هو الشعر الذي تنطوي معانيه أحياناً على الحكمة التي تغذى العقل ويمكن المناقشة فيها، يليه بعد ذلك العمارة التي تتصل كثيراً بعلم الهندسة، ثم الرسم والنحت. وإن أحب الفنون الينا لهذا السبب وأطربها لأفئدتنا هو أبعدها عن الذهن، وأن الكاتب أو الفنان الذي يستطيع أن يجعل من قصته أو أدبه أو فنه أو عمله أياً كان شيئاً يشبه الموسيقى في الطرب دون أن يجنح كثيراً إلى مخاطبة الذهن هو أقرب الكتاب إلى قلوب الناس، فالأديب الذي يكتب عن الرحمة يجد في الناس عدداً يطرب لذكرها أكثر من العدد الذي يجده أديب آخر يكتب عن منظر خاص من مناظر الطبيعة لا يعرفه إلا القليلون من الناس هم الذين يعيشون عنده وهم الذين يطربون لذكره إذا جرى على لسان الاديب، ذلك لأن الرحمة عاطفة تدركها النفوس الانسانية جميعاً ولكن هذا المنظر الطبيعي الخاص لا يدركه إلا أهله فقط. وليس معنى هذا أن زعامة الفنان صاحب الجمهور الكبير أفضل من زعامة الفنان صاحب الجمهور الصغير فقد يحدث أن يستشعر فنان بمشكلات تزحف نحو الانسانية من بعيد فيراها ولا يراها من الناس أحد غيره

وعندما تمتلئ نفس هذا الفنان شعوراً بهذه البشائر أو النذر وعندما يعبر عنها بغتة فانه قليلاً ما يجد الناس الذين يتذوقون تعبيره ويوافقون عليه ويطمئنون اليه، وإنما يغلب أن تثور عليه الجماهير ويغلب أن يتصدى له من زعماء الفن في عصره من تقاعد بهم الحس فيرمونه بالعجز أو الخبل أو الالتواء. وكثيراً ما ينكش الفنان السبّاق في حنايا فنه وتلافيفه فيقضي ما يقضي من العمر وهو غريب عن عصره حتى إذا وافى من الحياة وولى معه جيله وجاء بعده أناس قربتهم الحياة مما كان يراه ويتحدث عنه آمن هؤلاء به واستعادوا فنه واسترجعوه وأقاموه من أنفسهم في مقامه الحق وجعلوه هو الزعيم الحي وإن كان ميتاً. ويقابل هؤلاء الزعماء السباقين زعماء آخرون زعامتهم معكوسة فهم لا يقودون الجماهير وإنما يجرون وراء الجماهير، وقد يجد هؤلاء من وفرة التابعين ما لا يجده الواثبون الصاعدون وهؤلاء الزعماء الاذناب لونان: منهم من تسوقه نفسه إلى استرضاء الجماعات لأنه يحب رضى الجماعات ولأنه بطبعه فرد منهم لا يزيد عنهم حساً ولا قدرة على التعبير وإنما كل ما يميزه هو الجرأة على التعبير والانطلاق به ومنهم من يتسقط هذا الرضى عند الجماعات ليتسقط منه الربح المادي والجاه والشهرة وهذا أدنأ من صاحبه وأقرب إلى التجارة منه إلى غيرها. فالفنان في غير التجارة لا يعبأ بالزبائن ولا يحسب حساباً لأذواقهم، أما التاجر وحده فهو الذي يستقصي طبائع الاسواق متحسساً أي البضائع يروج فيها وأيها يبور، وليس هذا من طبع الزعامة في شيء وإنما هو من ملق العبيد الذي تضيق عنه أخلاق الفنان الرفيع. فأمانة الزعامة تقتضي الارشاد والاصلاح والتحسين فاذا كان الجمهور متردياً في رذيلة من الرذائل فليس زعيماً ولا هادياً من لم ينقذه منها، وكما أن الجماهير تتردى في رذائل خلقية وفي رذائل عقلية واجتماعية فانها تتردى كذلك في رذائل حسية يجب على من يحمل لواء الزعامة الفنية فيها أن ينقذهم منها أو أن يحاول

انقاذهم على أقل تقدير ما دامت هذه الزعامة سبقاً في الحس وسبقاً في التعبير . وبغير ذلك لا تكون زعامته سوى الانانية الفنية الضيقة التي ليس لها شأن إلا مع صاحبها فقط، والانانية أكثر عيوب الفن، فالرجل الذي لا تسخو نفسه بالحب العميق للعالم وكائناته لا يستطيع أن يرى جماله ، فأنت لا تستطيع أن تصف امرأة جميلة وتجيد الوصف ما لم تكن تحبها أو تميل اليها على الاقل . فالحب أساس الاحساس بالجمال فنحن نستجمل الزهر والحيوان والانسان والطبيعة الجامدة لاننا نحبها وما لا نحبه نستبشع منظره . فالكاتب أو الشاعر أو الرسام أو المثّال الذي تغمر نفسه الكراهية وهو دائم الحقد على الناس لا يمكنه أن يجيد فناً من الفنون . والفنان الحق هو الذي وهب حياته للفن وكان الروح المعبرة عن حياة الشعب الذي هو عضو فيه ، وهو في سبيل هذا يتحمل كل قسوة ومعارضة وعبء قد يقف في طريق رسالته ومن يكن مبدؤه في الحياة الشرف والخير فهو يستطيع أن يتحمل في سبيلها المكاره كما يقول بيتهوفن .

الفَصْلُ الثّاني

(١) التصوير والنحت

(٢) السينما والمسرح

(٣) الأدب العربي كفن

(٤) الموسيقا والشعر

١

التصوير والنحت

بينا فيما سبق طرفاً من رسالة الفن الصالح وسنعرض الآن لطرف من حالة الفن الحديث كما يسميه أهله ونريد هنا أن لا يغضب هؤلاء من صراحتنا فواجب المتصدر الاصلاح في ناحية من نواحي المجتمع أن يرفع الهابط إلى فوق ويدفع المتخلف إلى الامام . ويحتاج ذلك إلى كثير من الصراحة في النقد والبناء أما أن يدفعه التملق إلى مسايرة الفساد والمواربة في التعبير ليتملص من مسؤولية التوجيه الذي يجبره أحياناً على القسوة المرة على المقصر فذلك هو الخداع بعينه وحينئذ لا تختلف طريقته في العلاج عن طريقة الطبيب الجاهل الذي يعالج مريضه بالمخدر لا بالدواء لأن الدواء طعماً قد تعافه النفس .

ولنبدأ الآن من أنواع الفنون بالتصوير والنحت إذ لا يخفى على أحد أن المعارض في العهد الاخير قد غصت بكثير من اللوحات والتماثيل التي يصح أن يقال فيها أنها محاولات فطرية غير مفهومة فقد تقف أمام اللوحة فترة طويلة من الوقت محاولاً أن تستشف شيئاً وراءها ولكن بغير جدوى . فاذا سألت عنها قيل لك إنه الفن الحديث . نذكر أننا دخلنا بيت صديق لنا اشتهر بالرسم (السيرياليزم) كما يصر أن يسميه ونقلنا بصرنا من لوحة إلى لوحة لعلنا نستطيع تفسير مغزى واحدة منها فقط فلم نستطع وحينئذ اضطر أن يتدخل في الامر

ويشرح لنا التعبير المقصود من كل خط ففهمنا منه الفكرة وإن كنا في قرارة نفسنا لم نقتنع بأنه معبر عنها حقيقه بهذا الرسم. إننا لا ننكر أن التجديد والابتكار ضروريان لكل نوع من أنواع الفنون لأن الوقوف عند مظهر معين من مظاهره هو الجمود القاتل ولكننا نعتقد في نفس الوقت انه ليس من التجديد والابتكار أن يخرج الفنان على الأسس والقواعد الفنية وأن يجافي في انتاجه حد الكمال والتعبير الصحيح عن فكرة جالت في خياله وأراد أن يسكبها في الانتاج الذي توفر له ، لأنه إذا لم يتوخ ذلك يكون قد هبط بفنه وأخرجه عن الغرض السامي المطلوب منه من حيث يحسب أنه أحسن الصنع وأتى بشيء قيم جديد .

لقد كان عظماء الفنانين يقضون عشرات السنين في الدراسة والبحث بل وربما ماتوا بين نماذجهم وهم يبحثون عن مثلهم الأعلى لأنهم لا يعتقدون يوماً أنهم قد توصلوا اليه . وهذه ميزة يغفل عنها الكثيرون عندنا لا من الفنانين فحسب وإنما من العلماء والادباء فان الواحد من هؤلاء أقصى ما يسعى اليه أن يشغل وظيفة ، ما أو يحترف حرفة ما تدر عليه الربح فاذا توفر له ذلك عاش باقي حياته بدون هدف يسعى اليه ويوجه مواهبه نحوه ولذا لا نرى بينهم نابغاً ولا منتجاً ولو كان يحمل أرقى شهادات الاختصاص ان هذا الغرور هو آفة الآفات في بلادنا التي هي أحوج ما تكون إلى رجال يعملون للعمل ويتعلمون للعلم ويتفننون للفن وما أجمل الحكمة القائلة (**لايزال الرجل عالماً مادام يطلب العلم فاذا ظن بأنه علم فقد جهل**) يعني بدأ جهله لأنه فقد الدافع الاسمى الذي يدفعه للنمو والابتداع . وهو عدم الرضى بالوقوف عند حد معين ولو كان موضع غبطة الآخرين . إن الفنان الصادق كما قال أرسطو (**يجب أن يكون له مثل أعلى**) فاذا صور إنساناً مثلاً توخى من ذلك أن يصور فيه المثل الأعلى للانسان بما يلقيه على لوحته من أحاسيس عالية ينبض بها قلبه وقد تذهله هذه الغاية عن كل شيء سواها فيستغرق في عمله

ساكباً روحه فيما بين يديه حتى لو استطاع أن يستل روحه هو لينفخها فيه لما تردد اخلاصاً للفن فهو إذن يعرض ما يتصوره فيما يصور . خلافاً للانسان العادي الذي ينظر إلى الاشياء نظرة سطحية لا شيء فيها من العمق . ومن المؤسف أن يكون أكثر فنانينا من صنف الانسان العادي لأنهم لم يحاولوا أن يغوصوا وراء مثل أعلى لهم محاولين اظهاره فيما ينتجون. ومن الغريب أن تنتشر سخافاتهم - تلك التي زادها سوء تقليدهم للغرب - في كثير من المعارض في الوقت الذي نجد فيه استاذهم الذي يقلدونه يتحرر من هذه السخافات فنرى مستشار الرايخ هتلر يقول فيها منددا عند افتتاحه أخيراً معرض الفنون في ميونيخ « إن الرايخ الالماني يريد فناً يبعث في الشعب روح الاحساس بالجمال والقوة ، فناً يستمد قوته وأسسه من الطبيعة فيبرزها دون أي شذوذ أو تشويه . وليس لما يسمونه الفن الحديث أي مجال عندنا ولن نسمح ببقائه بعد اليوم » .

إننا نقول بدون مواربة أن الفن الحديث المتطرف بشكله الحالي ليس إلا تهرباً من الدراسة العميقة ووسيلة لتغطية الكثير من نواحي الضعف التي يشعر بها صاحب هذا النوع من الانتاج ، على أنه لو شاء أن يخدم نفسه ووطنه فعليه قبل أن يفرح بقطف ثمرات فنه الفجه أن يبدأ بالدراسات العميقة أولاً ويغوص فيها إلى الاعماق ثم لا بأس عليه بعد ذلك أن ينفرد بالعمل على أساسها ولا بأس عليه أن يبتكر ويجدد ويسير في الاتجاه الذي يريد لأن هذه الدراسة العميقة ستكون له عاصماً من الزلل وطريقاً إلى التركيز . ومنذ سنوات عقدت هيئة الفنانين المشرفين على صالون باريس العالمي اجتماعاً لتحديد موقفهم من الفن الحديث هذا، فقرروا في النهاية « أن من حق الفنان أن يجدد وأن يتصرف على أن لا يخرج على القواعد والنسب الطبيعية فالقطع التي تقدم إلى الصالون يشترط لقبولها

قبل كل شيء قوة التكوين وصحة الاساس . أما التفاصيل الاخرى كالألوان والظلال وغيرها فللفنان الحرية أن يتصرف فيها حسب اتجاهه واحساسه ولكن في حدود الذوق الجميل ، وكلنا يعلم قيمة هذا القرار الصادر عن فئة مختارة من ذوي المواهب النادرة والانتاج العالمي .

٢

السينما والمسرح

لقد كانت سورية يوماً رائد المسرح العربي ، وشخصية الفنان أبي خليل القباني الذي هجرها من وراء ما لاقاه من ضغط الاستعمار التركي إلى مصر ليس ببعيدة عنا ، وفي مصر وجد متنفساً واستطاع أن يضع النواة لهذا الفن مع الطليعة الاولى من الممثلين المسرحيين المصريين ، وبهذا نستطيع أن نقول أن التمثيل المسرحي ولد في سورية وترعرع في مصر. والمسرح ككل فن ذو رسالة خطيرة فهو لا يعيش إلا في كنف الحرية التي تمكنه من إظهار عيوب المجتمع وممارسة الاصلاح عن طريق النقد أو الترغيب والترهيب أو بغير ذلك من الوسائل والاساليب ، فالرواية المسرحية حينما لا يكون لها هدف مركز ولا مغزى تسعى اليه لا يمكن أن نسميها رواية بالمعنى الصحيح . وقد نظرت مختلف الطبقات من سواد الشعب نظرة احتقار وازدراء في بادىء الأمر لهذا الفن ، وبقيت هذه النظرة تلازم نفوس الناس زمناً طويلاً حتى ضعفت كثيراً مع تطور مفهوم الناس للفنون ، وبعد أن انتسب كثير من أكابر القوم إلى هذا الفن الضروري لكل أمة لأنه ركيزة من ركائز الاصلاح الاجتماعي لا سيما حينما تسمو مقاصده عن سفاسف الحياة . وهكذا ارتفع شأنه وشأن أبنائه وأصبح مناط رجاء كل من تحدثه نفسه بالظهور والشهرة والثروة العاجلة ، وأصبح لا يضير العائلة الكبيرة

أن يخرج منها ممثل أو ممثلة بعد أن كان يعد ذلك زلة كبرى ووصمة في جبين شرفها وعرضها . وكان التمثيل المسرحي منذ ابتنى اسماعيل دار الاوبرا في مصر أجنبياً أرستقراطياً لا يحظى برؤيته إلا الأمراء والحكام . فلما بنى اسكندر فرح مسرحه في شارع عبد العزيز بالقاهرة ، وضم اليه الشيخ سلامة حجازي أصبح وطنياً شعبياً يشهده الجمهور ، غير أنه كان إذاك مبنياً على أساس غير مشكور هو الغناء والمجون . وكان أسلوب الحوار فيه من الكلام المسجوع الملحون، ولا شك أن الخطوة التي خطاها هذا الفن نحو الكمال والرصانة ومعالجة مشاكل الشعب ، كانت بفضل الفرقة التي ألفها جورج أبيض وضم اليها الصفوة المختارة من ممثلي ذلك العهد ، ممن دربهم الزمن وأرشدتهم التجارب ، وحازوا رضى الجماهير . وكانت هذه الفرقة القبسة الاولى لشعلة النشاط المسرحي الذي نهج نفس المنهج . وهكذا أخذت ـ هذه الفرقة والفرق التي تأثرت بها ودخلت معها في منافسات فنية رائعـــة ـ تختار المسرحيات العظمى وتمثلها بلغة فصحى مستهدفة من ذلك غرضاً ما من أغراض الاصلاح محاولة أن ترفع مستوى ذوق الجمهور تدريجاً ، حتى يستطيع مجاراته لها في يوم من الايام وتكون بذلك قد رفعته اليها بدون أن تنزل هي اليه . وكانت تتوخى ذلك دائماً عن طريق بلاغة الاسلوب وبراعة الأداء. وكان مطمع هؤلاء الرواد الاولين أن يقيموا فن التمثيل على قواعد ثابتة وفي سبيل هذا المطمح جاهدوا طويلاً وضحوا كثيراً ، حتى وصلوا إلى كثير مما أرادوه له ، وتخرّج على أيديهم خلف أمناء يرجع اليهم الفضل في بقاء المسرح إلى اليوم .

غير أننا لا نستطيع مع ذلك أن ننكر أن ظهور السينما قد اضطر المسرح إلى أن يدخل في صراع دائم مع خصم عنيد قد يكون أكثر منه استعداداً وأشد استهواء للقلوب . لذلك رأيناه ينكمش قليلاً عن متابعة قفزاته السريعة أمام

الفن السينمائي ، وأن يضطر أربابه إلى استمالة العامة اليه بالتهريج والاضحاك والعودة لاستعمال اللغة العامية وتمثيل المهازل الخليعة التي تعتمد على المواقف المثيرة للغرائز ، والتي يحشر فيها هز البطن والاردان حشراً ينفر منه الذوق السليم . وهكذا أصابت النكسة هذا الفن العظيم فحرم الشعب من ثمرات جهاده ونزل إلى مستوى العامة في تفكيره وميوله ، بعد أن كان هو الذي يحاول أن يرفع الشعب اليه ، وأصبح من الضروري أن تبسط الحكومة حمايتها على هذا الفن وتنقذ أهله من الافلاس المحتم ، ليعود إلى رسالته الاولى ولو قلّ عدد المترددين على صالاته . فالمهم هو اصلاح الاذواق لا افسادها سعياً وراء الرزق . ولا شك أن الشعب كلما سمت عواطفه ، وتهذبت مشاعره كلما طلب اللذة العقلية في البيان والفن وانصرف عن الفن الرخيص . وليس لأحد أن يتطلب حينئذٍ من التمثيل المسرحي أن يعتمد على اللغة العامية بحجة أنها لغة الاشخاص الذين تصورهم الرواية وتجعل من مواقفها مرآة ، لهم لأن جميع المآسي والملاهي العالمية والتي تمثل على مختلف المسارح في الامم الراقية مكتوبة بالشعر العالي ، أو النثر البليغ . وهل كانت مسرحيات (**راسين ، وشكسبير ، وهوجو ، وجيته**) وأضرابهم من عباقرة هذا الفن مؤلفة إلا بهذا الاسلوب. غير أننا نريد من كتابنا الذين يتصدون لهذا النوع من الكتابة أن لا يتذرعوا بهذا ، فيغالوا في كتابتهم عن الافهام ، وأن يراعوا دائماً حال المتفرجين وتفاوت ثقافاتهم فيأخذوا بالاسلوب السهل الممتنع ، الذي يفهمه الجاهل ويظن أنه يحسن الاتيان بمثله ، فاذا حاول تقليده امتنع عليه . وإلا فما معنى تعريف البلاغة عند علماء الأدب العربي بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحة الكلمات . إن الفن الحقيقي أبدي خالد عام وحينما نختار له اللغة العامية نكون بذلك قد حكمنا عليه بالجمود ، لأن اللغات العامية متغيرة مختلفة ، أما حينما نختار له اللغة الفصحى السهلة فنكون بذلك قد

منحناه صفة التعميم ولم نقصره على قطر دون قطر . والمسرح مهبط البيان وطريق لايصال النفوس إلى الخير والحق والجمال، وليس من غايته اللهو والمتعة واستدرار عطف النظارة بدافع حب التكسب والمال ، فاذا هو عرض لها فعلى سبيل الترفيه عن النفوس والتخفيف من ثقل الحكمة التي تسمى الفرقة لاظهارها ، شأنه في ذلك شأن الاستعانة بالثمرة الحلوة في استساغة الدواء المر ، وعلى ذلك إذا لم يخرج المتفرج من الصالة وهو أكثر علماً ، وأوفر فهماً للحقائق ، وأسمى عاطفة مما دخل فقد أخطأ المسرح في هدايته السبيل .

وما قلناه في المسرح من حيث اتصاله باللغة والفكرة والاصلاح ، نقوله في السينما أيضاً ، غير أننا نزيدعلى ذلك اعترافنا بأن السينما في مصر لا تزال متخلفة كثيراً عن هدفها التي تتوخاه كما نزعم أو كما يرجى منها على الأقل ، فان وسائل النهوض بها من تأليف للقصص الصالحة لها ومن تمثيل غير متكلف ، ومن تصوير واضح وإخراج دقيق لم تكتمل بعد ، وأن إنتاجها الذي يظهر بغزارة — مع هذا النقص — المبتكر منه رديء والجيد مسروق عن أفلام أخرى أجنبية . وإننا نرى أن السبيل الوحيد لعلاج ضعف هذين الفنين هو تدخل الحكومة في أمرهما بالمراقبة التي لا تعرف التسامح ، فما كان منها متوخياً تهذيب العقل ، وتوجيه الرأي ، وتعميم الثقافة ، سمحت له بالظهور وشجعته عليه . وما كان منها مفرّطاً في ذلك متوخياً الربح من أقرب الطرق ولو على حساب تملق مرضات العامة ، وتملق غرائزهم قضت عليه بدون هوادة . ثم عليها أن تنشىء معهداً تشرف على توجيهه الصحيح ، ليخرج فنيين قادرين على ترقية الفن السينمائي والنهوض به حتى يقف في وجه السينما الاجنبية التي تغزو بلادنا بشدة لا تعرفها أية صناعة أخرى . وبذلك تحفظ الدولة جانباً كبيراً من اقتصادياتها كما تتخلص من أخطر أنواع الدعايات الاجنبية ، والتبشير بالمذاهب الاستعمارية ، والدعوة

للانحلال الاخلاقي والاجرام المعقد من وراء ستار . وعلى كبار الكتاب أن يساهموا أيضاً في هذا المجال فيخصوا هذا الفن بالقصص العالية معنى ومبنى حتى تقضي على ما تنغمس به السينما العربية الآن من تبذل وعامية صرفت عنها خاصة الشعب ومثقفيه وألجأتهم إلى رؤية الافلام الاجنبية ، رغم أنهم يعلمون بأنها تحمل اليهم السم البطيء في الدسم المغري ، كمن يهرب من شقاء الدنيا إلى الانتحار .

٣

الأدب العربي كفن

لا نريد أن نطنب كثيراً في هذا البحث ، فله مكانه المركز فيما بعد ، حيث سنتكلم عن كل ما يتعلق بالشعر خاصة، ثم علاقته وعلاقة النثر بالموسيقى بشكل عام .

إن الحياة الادبية في بلادنا كسائر الحيوات الاخرى واقفة لا تسير ، ولعل السبب في وقوفها أنها لا تدري الى أين تسير ، فهي حائرة غير مستقرة على وضع، وإن اتجهت وتحركت يوماً فالى غير غاية . والادب كما يقال وليد البيئة وابن الحالة الاجتماعية والسياسية التي تسيطر على البلاد . وهل يستطيع أن يقول أحد أن بلاد العرب مستقرة سياسياً ، أو اجتماعياً ، أو اقتصادياً ، حتى يستقر معها الادب ويزدهر ؟ والادب كذلك لا يزدهر ولا يضطرد نموه إلا في ظل الحرية والنعم ، فأين الحرية الكاملة ، وأين الحياة المنعمة ، حتى يترحرح معها هذا الفن ؟ إن محنة الادب عندنا كمنحة الفكر بوجه عام ، فالادباء والمفكرون ينتج بعضهم لبعض ، فهم الذين يكتبون ، وهم الذين يقرأون . وأما الخاصة فلانصرافهم إلى حياة الدعة وانغماسهم في متع الدنيا لا يفهمون الادب بل لا يكلفون أنفسهم فهمه ، فهم عنه في شغل شاغل ، كما أن العامة لأميتهم لا يفهمون الكتاب ، وإذا حرم الادب تشجيع الخاصة لا يزدهر ، وإذا لم ينل اقبال العامة لا يتم انتشاره ، وإذا لم يجد منافذ لهؤلاء وهؤلاء فسوف ينطوي على

ذاته ، ثم لا يتلون ولا يتقدم . ونكبة حب التقليد للغرب التي أصيب بها التصوير نجدها طاغية باغية في أدبنا العصري . وأخال أن هذه النكبة هي سبب هذه الحيرة التي اتسم بها أدبنا المعاصر إذ وصمته بالجمود ، فهو لا يدري أينطلق حراً مستقلاً ليعبر عن روح الشعب العربي ويعالج مشاكله ويصور كل ناحية من نواحي حياته فيكون حينئذ صورة صادقة عنه ، فيدفع بكل امكانياته في هذا الاتجاه فقط ، أم يسعى إلى جانب ذلك للأخذ باتجاهات جديدة في الأدب بدأت تنتقل الينا عن الغرب بصورة مذاهب ومدارس خاصة تتنازع الفكر العالمي. ثم على فرض أنه فرغ من مناقشة الأمر الثاني ورأى ضرورته لأن الادب مهما اختلفت أوطانه ومصادره، فلا بد وأن يكون له قاسماً مشتركاً تلتقي فيه آداب العالم جميعها ، على فرض كل ذلك فهو لا يدري بأي مقدار سيأخذ ويتأثر ويطعم أدبه المحلي ، وهـــذا كله ولا شك من أسباب ضعف شخصية الادب في بلادنا وانكماشه على نفسه ، وظهوره بمظهر هزيل لا يسمن ولا يغني من جوع ، ولا يعبر تعبيراً صادقاً عن روح الشعب لأنه بعيد عنه كل البعد ، فهو صور مشوشة وخواطر مختلطة لا تجمعها غاية ولا يحدها اتجاه مشترك علم .

نحن نفهم أن يتطور الادب ليلبي حاجات عصره ويعبر عنه بتجرد ، فتتحرر الافكار ، وتتجدد الالفاظ ، وترقى الاساليب ، وتسمو الاغراض ، ويعتمد في كل هذا على الصدق فيكون مرآة لنفس الكاتب ، كما يكون الكاتب مرآة للشعب الذي هو فرد منه . أما أن نتحرر من كل قيد من قيود القواعد العربية ، وأما أن نتمرد على القيم الادبية ، فندعو إلى إن يغفل الادب رغائب الروح وينصرف بكليته إلى مطالب الجسد باسم التجديد فمعناه أن نجعل أدبنا مجموعة ألفاظ لا طائل تحتها ولا فائدة ترجى من ورائها ، فهي كزرع أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً . إن مثل هـذا التحرر الخاطئ معناه الفوضى وخلق

البلبلة في اتجاه الادب العربي الحديث ، والانسان كما قال طاغور فنان في الكثير الغالب من أمور دنياه فلا ترتاح نفسه إلا للانتاج الذي استكمل شروط النجاح من جمال في العبارة وجلال في الاسلوب وسمو في الفكرة والغاية . وهذه المظاهر إذا واتت الاديب الذي سلمت فيه الفطرة وبرزت فيه الموهبة وساعده الاطلاع والتضلع في علوم اللسان والاحاطة بأسرار اللغة صدر عنه الكلام أنيقاً رقيقاً من غير قصد وتمحل ، والسمو إلى هذه المكانة من الفن الموهوب المكسوب أمنية كل كاتب، والحكم الفصل في كل هذا هو الفاعلية والتأثير اللذان يتركها النص في القراء والسامعين واللذان يزدادان عمقاً كلما كانت الشحنة العاطفية التي يحملها قوية وشديدة ، وقد عبر الجاحظ عن هذه الحقيقة بقوله « إن الكلمة إذا خرجت من القلب دخلت في القلب وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان » .

إنه لا خلاص من هذه الفوضى التي يتخبط فيها أدبنا الحديث ، ولا استقرار له على غاية تتوجه اليها جميع فروعه وتنصب فيها كما تتوجه الينابيع العديدة إلى مقر معين تلتقي عنده جميعاً لانشاء بحيرة يتولد عنها الكثير الكثير من الخير، ولا فائدة ترجى منه عموماً إلا إذا تحولت دراسة الادب في مدارس بلادنا من الفلك النظري التلقيني إلى فلك خلق الذوق الادبي عند الطالب بحيث يصبح ذواقاً للجمال نقاداً لما يقع بين يديه متعصباً للغة قومه وآدابها نتيجة إعجابه بها بعد وقوفه على أسرار بلاغتها واطلاعه على ما حوت عليه من كنوز ساهمت في بناء الحضارة الانسانية حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن . ثم بأن تنشئ الحكومة لجنة مختارة من الادباء تدعمها بالمادة والتوجيه كي تشرف على الانتاج وتوجهه في سبيل الصالح العام وتقوم بحمل رسالة الادب ونشره حينما يوجد الكاتب ولكن لا يوجد ما يشجعه على الكتابة من كسب مالي أو جائزة أو تقدير معنوي على الأقل كما هو الحال في البلاد الراقية التي تمنح أدباءها المتفوقين الجوائز الثمينة والاوسمة الرفيعة

وتقيم لهم حفلات التكريم وبذلك تحصل الغربلة بين الادباء ويسري التنافس بينهم على تنسيق الادب والسبق لكل شيء جميل طريف. أو حينما يوجد الكتاب ولكن لا يوجد الناشر ولا يستطيع المؤلف القيام بنفقات الطباعة والنشر. ثم تقضي على البلبلة التي داخلت عقول شبابنا من جراء ما يطالعون من كتب مترجمة مختلفة لكل منها وجهة معينة لا تخلو من أغراض فيها الكثير من الدعاية والتخريب والتمكين للاستعمار وذلك بأن تشرف على ما يترجم فلا تسمح إلا بنشر الكتب التي خلصت من هذه الشوائب وقد أخصبها العلم وهذبها الفن ونوعها التطور وصقلتها الحضارة فنطعم بهذه الروائع العالمية أدبنا الحديث. ففي أدب كل أمة مسحة خاصة لا توجد في أدب الامة الاخرى لأن الادب كما ذكرنا هو أصدق صورة للشعب وحضارته وكل ما يتعلق به . وبذلك نأخذ الصالح ونتوقى شر الفاسد لأن ثمرات المطابع كثمرات المصانع سلع عالمية ينتجها الجهد الانساني على اختلاف منازعه فمنه الهادم ومنه الباني ومنه الداء ومنه الدواء .

٤

الموسيقى والشعر

لا شك أن الموسيقى نعمة كسائر نعم الله سبحانه وتعالى على عباده إن أحسنوا استعمالها وسلكوا بها طريق التسامي جنوا عن طريقها كل ثروة طيبة وكانت في أيديهم أداة طيعة ترفه عنهم في السلم وتلهب عواطفهم في الحرب وتربي أذواق أطفالهم في المدارس وتشفي بعض أمراضهم المستعصية وترتفع بأرواحهم نحو السمو المطلق البعيد عن الحقد والرياء والكذب وساقط الشهوات . وإن انحرفوا بها عن الطريق السوي فاتخذوها أداة لاثارة الغرائز والترغيب في الفجور وانحطوا بها إلى درك الميوعة والنوح ، كانت أداة شر وتقهقر للأفراد وللأمة وعقدة من عقد النقص فيها يترتب على وجودها أبشع الجرائم والمضاعفات . ففي أي الاتجاهين تسير موسيقانا العربية اليوم ؟

إن من جلس جلسة المتأمل الناقد ساعة فقط إلى المذياع وأدار إبرته على محطات إذاعات الدول العربية يستطيع على الفور أن يحكم حكماً صحيحاً على أذواق فناني وفنانات هذا العصر ثم على أذواق المستمعين الذين تضاربت ميولهم وتعددت أهواؤهم فضاع أكثرهم بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية وحتى الذين يقدرون الاولى منها لا يجتمعون على رأي فمنهم من يفضل هذا النوع من الموسيقى والغناء ومنهم من يفضل نوعاً آخر يغايره ومنهم من ينتصر لهذا المغني وتلك

المغنية لما في غنائها من جنوح إلى التجديد ومنهم من يرى في هذا الجنوح خروجاً على الذوق العربي وبعداً عن المألوف ويفضل على ذلك شيئاً من الادوار القديمة إلى غير ذلك . ولكن مهما يكن أمر هذا التباين والاختلاف فقد يشعر من له أدنى المام بهذا الفن وتذوق له بأنه ينحط في بلادنا من سيء إلى أسوأ، وهو في انحطاطه هذا يصور مدى الاضطراب الذي تعيش فيه البلاد العربيـة ، الاضطراب في كل شيء ومن كل شيء كما ذكرنا فيما سبق من ألوان الفن الاخرى ، لأن الموسيقى ككل فن هي كذلك مرآة صادقة لميول الشعب وعواطفه ومقياس لمدى فهم الحياة ومقدرته في التكيف معها . ومن الامور البدهية أن الشخصية الضعيفة لا يصدر عنها إلا انتاج سطحي ضعيف . وإذا كانت الأمة لا تستقيم حياتها وتستقر إلا إذا سلكت ذاتيتها السلوك السوي في كل ناحية من نواحي العيش فان الموسيقى وهي دعامة من دعائم النهوض بالأمة لا يمكن أن تقوم برسالتها الحقة إلا إذا أعيد النظر فيهـا واعتنى بهـا الاعتناء القويم الذي يجعلها منبهة لنواحي النبل في الشخصية العربية لا مخدرة للطموح أو مثيرة للرذائل والشهوات . فبهذا وحده تتخلص من الانهيار الذي تساق إليه . ولقد بيّن أفلاطون فوائد الموسيقى في اصلاح الأمة والنهوض بها في قوله « لا يتسنى لمن يفكرون في إصلاح أممهم والنهوض بها أن يبلغوا أربهم إذا لم يتوسلوا قبـل كل شيء إلى ذلك بنشر الموسيقى الصاخبـة الداوية التي تهز المشاعر فتنفض عنهـا الخمول وتنشط في حناياها الأمل والمثابرة والثبات وتغرس في عروق الفرد روح الصمد والانتصار » .

ولعلي أظلم الموسيقى إذا وجهت اليها اللوم وحدها في هذه الناحية وتناسيت مهمة الشعر معها في هـذه الرسالة التي يعتمد عليها جزء هام من مستقبلنا الجديد فان شعراءنا المحدثين ليسوا وللأسف خيراً من موسيقيينا، فقد دفعهم حب التقليد والافتتان بمـا تلقيه لهم مائدة الحضارة الغربية من فتاتهـــا إلى الخروج

على ما تمتاز به اللغة العربية من مرونة واعجاز وما تمتاز به الشخصية العربية من فحولة وعبقرية،فأتوا بشعر لا رائحة له من الشعر إلا وزن قد يستقيم للشاعر وقد يخدش الأذن لا لشيء سوى أنه من الجديد المبتكر الذي يخالف ليعرف وألفاظ براقة تتشابك وتنتفخ كرغوة الصابون فاذا بحثت عن حقيقة تحتها فسوف لاتظفر بغير الماء الكريه . أما المعاني التي تريدها فاسأل عنها الشاعر نفسه لأنه أراد أن يمتحن ذكاءك فسلك طريق التلميح بدل التصريح . وإذا هو وفر عليك هـذا العناء وصرح لك بما يريد فسوف ترى فيه غالباً جميل بثينة ولكن من نوع آخر من نوع عصري يفهم لغة الغزل أكثر من أي شيء آخر في الحياة . وأي غزل ؟ الغزل المتهالك القذر الأثيم الذي تخطى الشرائع والآداب وكأنما سدت عليه أبواب الادب كلهـا غير هذا الباب فهو يصول فيـه ويجول حتى يكون له في مغامراته النسائية شركاء من الجيل الناشئ أو معجبين على الأقل ، وكأننـا قد نجحنا في كل مشكلة من مشاكل الحياة ولم يبق علينا إلا أن نرخي العنان لشهواتنا حتى تستنفد طاقتها في اللذة والاستمتاع . ومن المعلوم أن الموسيقى شقيقة الشعر مطبوعة على غراره فكما يكون الشعر تكون الموسيقى وله فيها بعض التحكم، فحينما تكون القصيدة من النوع الراقي في ألفاظها ومعانيها فان الملحن يضطر إلى اختيار ما يناسبها من الالحـان قوة ورقياً والعكس بالعكس . فالموسيقى العربية منحطة الآن لانحطاط الشعر فكلاهما يجب نقـده وتنقيحه وإخراجه بشكل يتلاءم مع واقعنا ويلبي حاجاتنـا وإذا لم يكن الشعر والموسيقى كذلك فأي مصلح للأمة يكون أقوى منها بياناً وأنفذ تأثيراً ؟ فاذا بقيت الموسيقى والشعر على ما هما عليه الآن فانها ولا ريب يلذاننـا ويمتعاننا ولكنها سيمثلاننا أبداً بأخلاق فوضوية متأخرة وإن كنا نتزيا بزي المتحضرين لأن هذه الأنات المرضية وهذه الزفرات التقليدية وتلك المعـاني الشعرية التافهة لا تصدر عن حزم ورجولة ولا تدل على

علم وسمو . وإذا كان الموسيقي والشاعر اللذان يعبران عن الانقلاب الاجتماعي السياسي الخطير في بلادنا وعما يحدث في قرارات نفوسنا من التبدل الكبير فيجب أن يبدأ منها الاصلاح فيكونان مثالاً في الخلق والانسانية والرجولة والاخلاص لفنيهما العظيمين وإلا فما ذنب الموسيقى والشعر إذا فسد قلب بعض المتطفلين عليها ومات فيهم الحس والضمير ولمثل هؤلاء نقول :

وأنتم زهور الفن أين فنونكم ... أحب ذليل ؟ أم بكاء مردد
أجف معين الفن لم يبق صورة ... تفك قيود الجنس؟ من ذا يقيد ؟
فأين غذاء الروح ؟ أين غناؤكم ... معان تربي واتساق يعضّد ؟
وأين رسوم نستشف وراءها ... سموّاً له في معبد الفن سجّد
نوادي ! أتمثيلاً نرى أم مهازلاً ؟ ... رويداً ضياع الوقت عقم مهدّد

الفَصلُ الثّالِثُ

(١) الاسلام والفنون : التصوير ، النحت ، الزخرفة ،
العمارة ، الموسيقا ، الشعر

١

الاسلام والفنون

قبل أن ندخل في هـذا البحث لا بد وأن نذكر بأننـا نؤمن بفكرة نعتقد أنها فكرة الكثيرين غيرنا ممن يقدسون المقاصد السامية للاديان ولا سيما الدين الاسلامي . هذه الفكرة هي « ان الاسلام أساس كل فضيلة وطريق كل منفعـة للانسان فكل ما دعا اليه فهو خير ، وكل ما نهى عنـه فهو شر وإضرار في مصلحة البشرية مهما كان مظهره وقوة مغرياته، وما تركه بدون أن يتعرض له بنص قرآني أو حديث شريف صحيح أو قياس أو إجماع فهو مباح مهما كثرت فيه الاقاويل». ونحن كما نؤمن بهذه الفكرة نؤمن أيضاً إلى جانبها برسالة الفنون الجميلة ونفعها وضرورتها لنهضة الأمة وتهذيب أخلاقها وصقل حضارتها . وعلى هذا الاساس محال أن يكون الاسلام سبباً في حرمان المسلمين من شيء ذي أثر عميق في حياتهم وبناء أمجادهم كالفنون الجميلة ، بل أثبت التاريخ ودلت الآثار التي خلفها أجدادنا على فضل الاسلام ويد المسلمين على هـذه الفنون حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن سواء فن الموسيقى أو الزخرفـة أو العمارة أو الشعر أو أي نوع آخر من أنواع الفنون . وإن الظن الذي يساور بعض الافهام الفاسدة من أن الاسلام دين زهادة وانكماش وعبادة محضة وجدّ دائم وحرمان من متع الدنيا لهو أكبر جناية يمكن أن يصيب بها هؤلاء الدين في الصميم . لأنه لو كان كذلك لما أمكنه أن يداخل نفوس

العرب التي تعودت الانطلاق من القيود والانغماس في المتع بل لما كان صالحاً لان ينسجم مع الحياة هذا الانسجام الواقعي. أن الله سبحانه وتعالى لخص نظرة الدين للحياة الدنيا والآخرة في آية صغيرة فعلينا أن نستذكرها دائماً فهي ضربة للجامدين ووثاق للمارقين « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » إن الفنين الوحيدين اللذين تعرض لهما الدين بصورة صريحة هما: التصوير والموسيقى فحسب، ومع ذلك وعلى كثرة الاحاديث التي وردت فيها فلم ينهض على تحريم واحد منها دليل قاطع .

أما التصوير وهو الذي ورد النهي عنه مشدداً حين ذلك في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا تصاوير) وقوله في حديث آخر (ان أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون) وقوله (إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم أحيوا ما خلقتم) وهو أصح ما ورد في الموضوع ، فمع التسليم بصحة هذه الاحاديث جميعها فان الأخذ بالمعنى السطحي لها فيه انكار للعقل الذي مجده الاسلام واحترمه أشد احترام في كثير من آي الذكر الحكيم، كما فيه تعارض مع الفطرة السليمة التي جاء الاسلام أيضاً مسايراً لها وهو دين الفطرة . إذ ليس يعقل أن يكون المصور مطلقاً أشد عذاباً من القاتل والزاني والكافر بالله جل شأنه مثلاً ،وحينئذ يترتب أن تكون (أل) في كلمة المصورين — التي وردت في أقوى هذه الاحاديث سنداً — للعهد كما يقول النحويون فيكون المقصود بـ (المصورين) الواردة في هذا المقام هؤلاء المعروفون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين ما كانوا يصورون إلا الاصنام التي تتخذ آلهة من دون الله ، ولم يرد في ذلك العهد ما يصرف معنى الحديث إلى غير ما أشرنا إليه حتى نقف عنده ولا نتعداه . وعلى افتراض أنها ليست للعهد وأن الاحاديث جاءت لتحريم التصوير مطلقاً، فمن المرجح أن يكون الغرض منها صيانة

الدين الجديد في ذلك الوقت وحمايته من معتقدات الجاهلية حيث كان العرب يعبدون الاصنام التي كانت رمزاً لشراكهم بالله، والتي حطمها الرسول يوم دخل مكة فيما قضى عليه من نقوش وصور وجدها على جدران الكعبة تمثل الملائكة وبعض النبيين ومنهم ابراهيم والتي كانت تعارض فكرة التوحيد الذي جاء به الاسلام. أما وقد تمكن الاسلام من نفوس الناس وأصبح العقل الانساني على درجة من الرقي يأنف معها من أن يذل لحجر أو خشب فليس هناك ما يمنع من الاستفادة من الفنون الجميلة بما لا يتعارض وروح الدين، كما وقع منه عليه السلام النهي عن زيارة القبور لما كانوا يقيمون حولها من مناحات وغيرها من الامور التي لم يقرها الدين، ثم سمح لهم في حديث آخر بزيارتها بعد أن عرف الناس جميعاً ما يحرم من ذلك فانتهوا عنه. ويؤيد هذا ما ثبت من أن النبي صلى الله عليه وسلم أقر استعمال نقود العرب في الجاهلية وكانت ترد غالباً من الممالك المجاورة لهم وهي مصورة، وأن عمر رضي الله عنه لم يمانع في ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها، وأن معاوية ضرب نقوداً عليها تمثال فارس متقلد سيفاً، وقد استعمل زيد ابن خالد الصحابي رضي الله عنه الشمع الذي فيه صور ولم ينكر الناس عليه، وهم ولا شك أقرب منا إلى عهد رسول الله وأشد تعمقاً في فهم دينه وأعظم تعصباً منا له. ثم جاء الخلفاء الامويون ومن بعدهم ودعوا لزخرفة قصورهم بأشكال من الصور كقصر الطوبى، وقصر المشتى، وقصر عمر الذي يعتبر أعظم ما وصل الينا من فن الزخرفة والتصوير في صدر الاسلام، ولم يكن إهمالهم للنحت إلا بسبب كراهيتهم له لصلته الوثقى بالاصنام التي قاومها الدين منذ البدء وحطمها شر تحطيم. على أنه ليس ببعيد — والاحاديث لم تدون إلا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بما يقرب من مئتي عام — أن يكون بعض ما ورد منها في التصوير مدسوس عليه من عمل اليهود الذين اختلقوا كثيراً من الاحاديث لتصديع الاسلام، وقد عرفوا إذ ذاك

بكراهة التصوير لاعتقادهم أن للصور تأثيراً سحرياً . بل لقد نصّت توراتهم صراحة على تحريمه . فقد جاء في سفر الخروج الاصحاح العشرون « لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ، ولا صورة مما في السماء من فوق، وما في الارض من تحت، وما في الماء من تحت الارض » بينما نرى في بعض آيات القرآن الكريم ذكراً للتماثيل التي كانت تقام لداود عليه السلام باذنه « ومن الجنة من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور » .

على أن العلماء اختلفوا أشد الاختلاف في فهم هذه الاحاديث واستنباط الاحكام منها . فالبعض منهم يحرم التصوير عامة . والبعض يكتفي بتحريم الصور البارزة كالنحت . ومنهم من يستثني الدمى منه لأنه ثبت أن عائشة رضي الله عنها كان لها دمى تلعب بها أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لم ينكر عليها ذلك . ولا ندري ما الفرق بين هذه الدمى وبين التماثيل التي تنصب في الشوارع تخليداً لعظماء الأمة تذكيراً بهم حتى تحرم هذه وتباح تلك . أما القرآن الكريم فلم يشر إلى تحريم التصوير أو النحت لا من قريب ولا من بعيد، ولا يعقل أن يكون المصورون أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثم لا يرد شيء منه في ترهيبهم ومنعهم عن التصوير وهو الذي لم يدع شيئاً من كبائر المحرمات إلا نص عليه بل نجد فيه ذكر التماثيل كما نصّت الآية في معرض الثناء على آل داود .

ولا شك أن عداء العلماء للتصوير قد حرم الدين كثيراً من خدمات هذا الفن في تخليد بعض الشخصيات الاسلامية البارزة والمواقع التاريخية الحاسمة، مما له مثيل عند غير المسلمين . وقد رأى الشيخ الامام محمد عبده حين كان مفتياً للديار المصرية ومن ذهب مذهبه، أن معنى العبادة وتعظيم التماثيل والصور قد محي

من الاذهـان وأصبح الدين بمأمن من عودة النفوس اليه لا سيما بعد أن اعتقدت بطلانه بشكل لا يتطرق اليه الشك فقال في فتوى له وردت في مجلة المنـار « إنه يغلب على ظني ان الشريعة الاسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر منها على الدين، لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل ». كما مالت لجنة الفتوى في الازهر إلى هذا الرأي أيضاً في مناسبة أخرى .

على أنه يجب علينا أن ننهي كلمتنا عن التصوير باعتراف كنا نود لو كان فيه شيء من التحامل والمغالاة بالنسبة لوضع هـذا الفن المخجل في بلادنا، والذي ساء فهمه إلى حد أخرجه عن غاياته النبيلة وأهدافه السامية حتى غـدا سلعة رخيصة ووسيلة قذرة من وسائل الولوغ في الشهوات. كنا نود لو فهم المصورون والمثالون هذه الحقيقة الصادقة، وهي أن الفن يجب أن لا يتعارض مع الدين وأنه بالامكان أن يزدهر في حدوده فاستمسكوا بها صيانة لفنهم من العبث والفساد . إنه من الخطايا الكبرى أن يحسب هؤلاء وأن يحاولوا إقنـاع الناس بأن الصور العـارية هي أقرب الصور لحقيقة الفن. ولهؤلاء نقول : أي فن تعبر عنه المرأة العارية إذا ما صورت وعرضت للجمهور ؟ وأي فضيلة وإحساس تثيره في نفسه النظرة اليها ؟ هل تثير غير الشهوة والاغراء بالرذيلة ؟ وإذا كان الامر كذلك، فمتى كانت الفنون داعية للرجوع بالانسان إلى بهيميته الاولى ، التي ما تخلص من نقائصها وعيوبها إلا بعد أن قضى في سيره الصاعد آلاف السنين وقدم آلاف التضحيات؟ وماذا يضيرنا لو صورنا الرجل في ثيابه والمرأة في ألبستها الشرعية على أساس أن ذلك وسيلة لتأدية فكرة نبيلة أو التعبير عن مشهد من مشاهد الحيـاة أو موقف من مواقف التاريخ التي اعتاد الناس فيهـا الستر والاحتشام مع العلم أن هـذه الملابس المعتادة كثيراً ما تضاعف جمال الوحدة الفنية وتشعر بالاحترام والتبجيل .

إن الغرض من الفنون الجميلة هو خدمة الشعب والرقي باحساساته والتسامي

بغرائزه فعلى الفنان، أن يفهم ذلك ويعمل له باخلاص . أما حين ينحرف عن هذه الغاية ليجعل من فنه شبكة يتستر وراءها ليوقع في حبائله الخليعة من رخص جسمه وهانت عليه نفسه من النساء والرجال وليداس على الشعب باسم الفن فالفن منه ومن عمله هذا بريء .

وأما الموسيقى : فقد حاول بعض العلماء الحظر في بعض أنواعها درءاً للمفاسد ولكن لم تسعفه الأدلة على كثرة ما ورد منها في شأن هذا الفن لأنه من أقدم الفنون عند العرب وألصقها بحياتهم، بل كان ما ورد في الغناء والسماع من نصوص شرعية شاهدة له لا عليه . وها نحن نورد في ذلك قولاً لحجة الاسلام الغزالي ذكره في كتابه الاحياء « إعلم أن قول القائل السماع حرام معناه أن الله تعالى يعاقب عليه ، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع. ومعرفة الشرعيات محصورة في النص أو القياس على المنصوص ، وأعني بالنص ما أظهره ﷺ بقوله أو فعله وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله فان لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه وبقي فعلاً لا حرج فيه كسائر المباحات. ولا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس ويتضح ذلك في جوابنا على أدلة المائلين إلى التحريم ، ومهما تم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلكاً كافياً في اثبات هذا الغرض ، لكن نستفتح ونقول : قد دل النص والقياس جميعاً على إباحته. أما القياس فهو أن الغناء اجتمعت فيه معانٍ ينبغي أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها، فان فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب . فالوصف الأعم انه صوت طيب ، ثم الطيب ينقسم إلى موزون وغيره ، والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار ، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات . أما سماع الصوت الطيب من حيث أنه طيب فلا ينبغي أن يحرم بل هو حلال بالنص والقياس » . وهكذا يمضي الامام الغزالي في دحض حجج المستكرهين للموسيقى بالقياس ، فيقيس حاسة

السمع ولذتها على سائر الحواس التي يتمتع بها الانسان ولذتها ، وبالنص من حيث أن الله سبحانه امتن على عباده بسماع الصوت الحسن إذ قال (ويزيد في الخلق ما يشاء) وقد قيل في تفسيره: هو الصوت الحسن. وفي الحديث الشريف (مابعث الله نبياً إلا حسن الصوت) . وأورد في مكان آخر من كتابه « ونقل أبو طالب المكي إباحة السماع عن جماعة فقال سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم. وقد قال فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي باحسان. وقال لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة وهي الايام المعدودات التي أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق ، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا ، فأدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية ، قال وكان لعطاء جاريتان تلحنان فكان اخوانه يستمعون اليها ، قال وقيل لأبي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يستمعون فقال وكيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير مني! فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع وإنما أنكر اللهو واللعب في السماع » . هذا وقد روي أن النبي ﷺ ساعد زوجه عائشة رضي الله عنها بأن أقامها خلفه يوم عيد أرفدة وهم أحباش كانوا يقيمون الحفلات الغنائية يتخللها الرقص واللعب في مواسمهم وأعيادهم ووضع خده فوق خدها وقال : دونكم يا بني أرفده فرقصوا وغنوا ولعبوا وهما يسمعان ويتفرجان حتى إذا ما ملت عائشة قال لها النبي الكريم حسبك ؟ فقالت له : نعم . وفي هذا دليل قاطع على اثبات إباحة السماع ، ورؤية الرقص الشعبي المحتشم ، وعدم تحريم حضور مثل هذه الحفلات الرصينة التي تخلو من المخالفات الدينية والخروج على الخلق الكريم . وفي أصدق رواية عن النبي ﷺ انه دخل ذات يوم على عائشة وهي تزف جارية لها من الانصار فقال لها: يا عائشة!

ألا تبعثين معها من يغني ؟ فان هذا الحي من الانصار يحبون الغناء . بل لقد أنكر عليه الصلاة والسلام على أبي بكر وعمر زجرهما وانتهارهما أهل الحبشة مرة لغنائهم في عيد من الاعياد، ولو كان لانكارهما ما يبرره لأقرهما على ذلك وهو المشرع الاول الذي أنزل عليه القرآن هدى للناس . وقد روي عنه عليه الصلاة والسلام (ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن) وفي حديث آخر (لله أشد أذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته). وفي كلا الحديثين دليل على اذن الله سبحانه وتعالى بالتغني في القرآن وحبه لهذا التغني ولذا فقد عرف من النبي ﷺ أنه كان يشجع من أوتي الصوت الحسن على ذلك ، فقد كان يقول في مدح أبي موسى الاشعري لحسن صوته (لقد أعطي مزماراً من مزامير آل داود)، كما أنه اختار للأذان بلالاً الحبشي لأنه كان ندي الصوت ولما للصوت الحسن من قوة سحر ونفاذ في نفوس المستمعين . وقد كانت قراءته عليه الصلاة والسلام نفسه تفعل فعل السحر في النفوس فقد كان يكتفي بقراءة صدر من سورة ليؤمن من يسمع ويداخل الاسلام قلبه .

أما من جهة إباحة الآلات : فلقد سمع ﷺ صوت دف فسأل عن أصله ومصدره فقيل له : فلان تزوج فقال (هذا نكاح ليس بالسفاح) وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سافر سفراً فنذرت جارية من قريش ان رده الله تعالى أن تضرب في بيت عائشة بدف، فلما رجع الرسول الكريم وأرادت الجارية أن تفي بنذرها ذهبت عائشة تخبره فقال لها : فلتضرب . ولقد وافق الثقات على هذه القصة وسندها صادق ومتصل ، وهي دليل على أن ضرب الدف وهو آلة من آلات الموسيقى لو كان حراماً لما رضي النبي أن يضرب في بيته ولما أقر معصية من المعاصي لتفي جارية بنذرها مع أنه القائل (لا نذر في معصية) أما باقي الآلات الموسيقية ذات الاوتار وغيرها فلم يرد فيها نص يرجع إليه في التحليل والتحريم

لعدم انتشار بعضها في عهد رسول الله ﷺ ولاستحداث البعض الآخر بعد عهده بزمن طويل لذلك فالحكم فيها أن تقاس على الدف الذي ثبت فيه التحليل وأن تبقى على الاباحة الاصلية كما هو الشأن في القاعدة الاصولية العامة فيما لم يرد فيه نص شرعي لا فرق بين آلة وأخرى من آلات الطرب فكلها وجدت لغاية واحدة كما ان العلة فيها واحدة ، وما ترك المتقدمين لها وزهدهم في سماعها إلا تورعاً وزهادة كما تركوا اكل الطيب وشرب البارد . وبذلك أفتى القاضي ابراهيم ابن سعد بن عبد الرحمن بن عوف أول متفقة ثقة سمع العود وهو من الآلات الوترية وعزف عليه وقد أجمعت الائمة على عدالته واتفق البخاري ومسلم على إخراج حديثه في الصحيح . والائمة الذين رووا عنه وهم من أهل الحل والعقد في الامور الشرعية إنما سمعوا منه ورووا عنه بعد استماعهم غناءه وعلمهم أنه يبيحه ومنهم الامام أحمد بن حنبل ومعروف من هو في تشدده وتمسكه بأهداب الدين . وقد روي ان الامام الشافعي كان ذات يوم مع أحد أصحابه وفيهم ابراهيم بن اسماعيل فاتفق أن مروا على دار قوم تغنيهم جارية بصوت رائق حسن فقال الشافعي لمن معه : ميلوا بنا نسمع ودخلوا الدار بقصد السماع . ومثل الآلات الوترية آلات النفخ كالمزامير وسواها . فانه لا يوجد شيء قوي فيها يستند اليه في التحريم ، فكل ما ورد من تحريمها أو تحريم الاستماع اليها أو إلى غيرها ضعيف مختلق ، الغرض منه تنفير الناس منها وصرفهم عنها في وقت كان يغلب فيه الجد على المسلمين في ابتداء دعوتهم وانشغالهم عن الطرب والسماع بالجهاد ونشر الدين وتنظيم شؤون الدولة الجديدة التي بدأ تأسيسها محمد عليه الصلاة والسلام . ومع ذلك فقد روي ان عمر رضي الله عنه على جلال قدره وشدته في أمر الله أذن لرباح بن المعترف بأن يفتي أصحابه الذين كانوا معه في طريقه إلى الحج ليقصر عليهم الطريق ويخفف من صعوبة السير في القفر فغنى رباح للحجيج وهم محرمون وكان بينهم

كثير من الصحابة والتابعين والانصار ، غير أنه يحسن بنا أن نعرف أيّ غناء كان يحبه سيدنا عمر رضي الله عنه .

روى صاحب العقد الفريد أن عمر بن الخطاب قال للنابغة الجعدي أسمعني بعض ما عفا الله لك من غنائك فأسمعه كلمة له . قال وانك لقائلها ؟ قال نعم . قال لطالما غنيت بها خلف جمال الخطاب . ومن هنا نفهم أن الغناء لدى عمر كان على صنفين: صنف يعفو الله عنه وهو ما يدعو إلى الفضائل والرجولة والخير. وصنف لا يعفو الله عنه وهو المخنث البعيد عن الفضيلة والدعوة للحمية والخلق الكامل ، مما يبعد الشعب عن الجهاد ومظاهر الرجولة ويدعو إلى الميوعة والاستسلام للدعة والتواكل ومن ذلك أكثر ما نحن مبتلون به الآن . فلله در عمر من رجل بعيد النظر رفيع الذوق ، ولله در الاسلام الذي ربى عمر فجعله مثالاً لعظماء الرجال . لقد ترعرعت الموسيقى في زمنه ودخلت منازل الأمراء والاشراف وسارت مجالس الشعر والأدب . فما أطل عصر عثمان حتى سجلت أخبار المدينة أن رائقة المغنية المشهورة وتلميذتها عزة الميلاء وغيرهما كن يحيين فيها حفلات موسيقية يحضرها أشراف القوم وعلى رأسهم حسان بن ثابت شاعر رسول الله عليه الصلاة والسلام . كما روي أن سكينة بنت الحسين كان يلازمها الغريض المغني المشهور في عصره ملازمة الظل ، وكان لها مجالس أدب وطرب يحضرها كبار العلماء وفطاحل رجال الدين . وكانت إذا ما اجتمع عندها المغنون أذنت للناس كافة في دخول بيتها . وصدف مرة أن أحب مغنو الحجاز وهم ابن سريج ومعبد والغريض أن يوجهوا دعوة لزميلهم حنين الحيري وكان ألمع من غنى بالحيرة ليحضر إحدى حفلاتهم عند سكينة. ولما تسامع الناس بحضور حنين هرعوا للحضور حتى غصت بهم الدار فتزاحموا فوق سطح المنزل حتى ناء بثقلهم . وبينما كان حنين يغني وسط هذا الحشد الكبير سقط السقف فمات حنين من جملة من ماتوا تحته . فقالت

السيدة سكينة لقد كدر علينا حنين سرورنا ، انتظرناه مدة طويلة كأنا والله كنا نسوقه إلى منيته . حتى إذا جاء دور الدولة الأموية رأينا الموسيقى تزدهر بشكل عجيب حتى أن الخلفاء أنفسهم كانوا على صلة وثقى بها يستمعون ويشجعون، بل لقد كان عبد الملك من أعظم رجالات الفن في حينه ، فكان موسيقياً حاذقاً وملحناً كبيراً بارعاً في معرفة ضروب الغناء وأصول الأصوات والتلحين . ثم أخذ الفقهاء بعد ذلك يهتمون بهذا الفن ولا يرون مانعاً من تعلمه وإتقانه . فهذا شيخ الحنفية الكمال بن الهمام الذي بلغ مرتبة الاجتهاد ، قد ذكر السيوطي عنه أنه كان علامة في الموسيقى .

وروى ابن خلكان أن الفقيه أبا مروان بن الماجشون تلميذ الامام مالك كان مولعاً بالغناء . وهذا اسماعيل بن جامع القرشي المغني الفحل كان قد أكل السجود جبهته ومن أحفظ خلق الله للقرآن وأعلمهم بما يحتاج اليه وأورع الناس في زمنه.

إننا لا نريد أن نترك هذا البحث قبل أن نعيد لأذهان القراء ما سبق أن مرَّ بهم من رأي عمر فيما يسمع من الموسيقى والغناء فهو كالشعر تماماً. فكما أن الشعر حسنه حسن وقبيحه قبيح والتفرغ له مذموم ، وليس في إنشاده ونظمه تحريم إذا لم يكن فيه كلام مستكره . وقد قال ﷺ (إن من الشعر لحكمة) كذلك الموسيقى فهي أخت الشعر وبينها أمور مشتركة من وزن وتنغيم وتأثير في النفس. وإذن فما كان من الموسيقى أو الشعر مخنثاً صارفاً للناس عن المثل العليا التي ترفع من قيمة حياتهم فهو حرام ، وما كان منها مغذياً لأرواحهم منمياً للفضائل في ذواتهم كان حلالاً لا غبار عليه ، ففي ذلك فائدة ومصلحة وحيثما كانت المصلحة الخيرة محققة للأمة فثم شرع الله .

ومن الظلم للفنون جميعاً أن يعتقد فئة من المنتسبين اليها أن حياة الفنان يجب أن تكون مثال الشذوذ في نمط المعيشة وفي الخروج على الفضائل مع أن

الفنان الحق هو الذي يقدر الجمال ويحبه ويعمل له فكيف يرضى بالحماقة مذهباً وبسوء الخلق ميزة ، والفن في حد ذاته نظام وأناقة وتربية للروح؟ إن الفنان الاصيل هو الجميل في لفظه وحياته وأخلاقه وهو الذي يحس برسالته احساساً عميقاً ويحب فنه حباً طبيعياً لا تكلف فيه ولا ادعاء .

الفَصْلُ الرابعُ

(١) تعريف بالموسيقا
(٢) الموسيقا في تاريخ العرب
(٣) فضل العرب على الموسيقا

١

تعريف بالموسيقا

الموسيقا : لفظ يوناني الأصل ، كان يطلق أولاً على آلهة الجمال ثم أطلق فيما بعد على آلهة الفنون الجميلة . واستعمالها عند العرب بالمعنى المعروف ابتدأ منذ القرن الثالث للهجرة في زمن ابراهيم الموصلي ، فهو إذن من الدخيل على اللغة العربية بدون تحريف ، واصطلاحاً علم وفن معاً . فالأول من العلوم الطبيعية المبنية على القواعد الرياضية ووظيفته ترتيب وتعاقب الاصوات المختلفة في الدرجة المؤتلفة المتناسبة بحيث يتركب منها ألحان موسيقية ثم القيام بما يلزم لصوغ هذه الالحان من موازين أو فرديات تكسبها طلاوة في السمع ، والثاني وهو الفن وينحصر في العزف بالآلات الموسيقية والغناء . وللموسيقى أوزان زمنية متساوية في زمنيتها تجعل اللحن جميلاً وإن اختلفت أنغامه ، وعلى ذلك تتكون الموسيقى من عنصرين أساسيين هما الصوت والزمن . أما الصوت الموسيقي (النغمة) فهو عبارة عن صوت ذي قيمة موسيقية يمكن تقديرها ، وينشأ من اهتزازات منظمة تنتقل من الأذن إلى المخ فتحدث في النفس ارتياحاً لدى سماعه، وتتناسب درجة النغمة مع عدد الاهتزازات في الثانية ، فكلما زاد عددها ارتفعت درجة النغمة

وتسمى عندئذ حادة . وكلما قل عددها انخفضت درجتها وتسمى حينئذ غليظة . وإذا خرج الصوت في الهواء فان التموجات الصوتية تنتشر في الطبقات الهوائية المحيطة بمصدره من جميع الجهات على شكل كرات مركزها ذلك المصدر . وكلما بعدت المسافة عن مصدر الصوت أخذت شدته في النقصان ، وهكذا يتفاوت في قوته بين شديد أو رفيق . والاصوات أنواع ولكل نوع صفة من التأثير تميزه من الاصوات الاخرى المتحدة معه في الدرجة ، فاذا سمعنا عدة أصوات درجاتها واحدة من مصادر مختلفة فانه يمكن التمييز بينها بسهولة ويقال هذا صوت بيانو وهذا صوت كمان وهكذا . والموسيقى سبع نغمات فقط تسمى بالمقامات الاساسية وهي حسب ترتيبها التصاعدي (دو ، ري ، مي ، فا ، صول ، لا ، سي) وتكون هذه المقامات نفسها صعوداً أو هبوطاً في درجات مختلفة من الحدة أو الغلظ فتكوّن بذلك عدة طبقات موسيقية متباينة .

هذا وقد اختلفت الاقوال في أصل هذا الفن ومبادئه عند الأمم ، ولا يصح الجزم بواحد منها أو ترجيحه لغموض الأمر كما اختلف أيضاً في تحديده . فقال بعضهم أن الموسيقى كل حركة أو اهتزازات في الطبيعة كحركة الاشجار والنبات وما أشبه ذلك . وقال آخرون انها من الاصوات الطبيعية الانسانية، إلى غير ذلك من الاقوال . غير أن ما عليه أكثر علماء الموسيقى « أنها فن التأثير في النفس ، ويتم ذلك كله بتأليف أصوات تلذنا فتثير فينا هذه العواطف المختلفة من أول وهلة فيصل تأثيرها إلى النفس مباشرة . ومن أجل هذا سميت الموسيقى لغة النفس » . ونريد منذ الآن أن ننبه القارئ إلى أنه إذا أردنا التفريق بين الموسيقى والغناء فانا لا نستطيع ذلك إلا على سبيل التجوز لأن الموسيقا هي مجموعة الاصوات التي تصدر عن آلة أو آلات موسيقية ، والغناء مجموعة الاصوات التي تصدر عن الحنجرة . ولكن الذي يشترك بينها ويجعل منها صنوان من أصل

واحد هو اللحن والعاطفة والايقاع ، ثم ما يخلقان معاً من مشاعر وأحاسيس مختلفة في نفوس المستمعين . فلفظنا الموسيقى والغناء تطلقان على الاصوات المنسجمة المعبرة عن عاطفة أو عواطف تختلج في نفس العازف أو المغني فتتسرب ألحاناً متساوقة إلى أعماق المستمعين فتثير فيها نفس الاحساس الذي يشعر به من صدرت عنه الالحان . ولذا فانهما كثيراً ما يظهران متعاونين في أداء هذه المهمة التي تتجسم في تصوير المشاعر الانسانية العامة من فرح أو حنين أو رهبة أو يأس إلى غير ذلك من الاحساسات التي تنتاب الانسان في حياته وتختلف باختلاف ظروفه الخاصة والعامة وتنقلها إلى نفس أخرى تجد عندها الصدى العميق الذي يتردد في وادي الذكريات اللامحدود .

وتاريخ الموسيقى غير محدود بعصر معين كما هو الشأن في سائر الأمور النفسية الأخرى التي رافقت الانسان منذ وجوده . ولذا فقد تنكرت معالمها أحياناً طويلة لعجز الانسان القديم عن استقراء حقائقها والوقوف على دقائقها فعزاها إلى الآلهة التي كان يعبدها إذ ذاك رجماً بالظن ومبالغة في تقديره إياها فنسبها الهنود لإلههم برهم والمصريون لأوزيريس مخترع المعرفة وهرمس موجد العود . وكان اليونانيون يعدون كبار الموسيقيين عندهم بين آلهتهم ويحرصون كل الحرص على تعليمها أولادهم ومن ثم فقد امتزج فن الموسيقى عندهم بفن النظم فاعتبروا هوميروس شاعراً وموسيقياً لأنه كان يغني منظوماته أمام الابواب . ثم العرب لم يكن شأنهم مع الموسيقى أقل من شأن هذه الأمم العريقة معها ، فقد كانوا يتغنون بأشعارهم لمقاصد جمة أخصها إثارة الحماسة في نفوس المحاربين . ولما جاءهم الاسلام وأتاح لهم الاختلاط بالامم الاخرى التي بسط لواءه في ربوعها واستقرت لهم دولة ، وفرغوا من جميع حاجاتهم الضرورية الهامة اقتبسوا أفضل

ما عندهم من الانغام الموسيقية ومزجوها بالانغام العربية الأصيلة ففاقت بعد التنظيم سائر أنواع الموسيقى عند بقية الشعوب كما هو شأنهم في أكثر الثقافات التي تناولتها عبقريتهم بالايضاح والتهذيب والاستكمال . وقد بلغت أوج النضج في عهد العباسيين ولا سيما في خلافة هارون الرشيد ، وأصبحت الموسيقى العربية على ما هي عليه من بطء التطور بالنسبة للموسيقى الغربية أشد من هذه تأثيراً في المجموع العصبي وأوفى لذة كما شهد بذلك بعض البعثات الموسيقية الغربية التي زارت الشرق في فترات مختلفة من التاريخ .

ومما لا شك فيه أن الموسيقى في أول عهدها كانت مقصورة على الصوت الطبيعي حتى تنبه الانسان على أقرب الظن إلى اختراع الآلات عند سماعه صفير الهواء المتداخل في الخصاص والثقوب فاستعمل أول ما استعمل أنابيب القصب للنفخ وأوتار القسي للعزف ، وتطور به الأمر بعد ذلك حتى جاوزت الآلات الموسيقية العشرات لما تتمتع به من امكانيات قد لا تتوفر حتى لمن أوتي حنجرة ذهبية كما يقال في تعبير حديث ، فضلاً عن كونها وسيلة طبيعية أمينة للتعبير عن مشاعر النفس البشريه شأنها شأن الغناء وبدا مع ذلك تعرفه للايقاع اللحني ولم يكن ذلك غريباً عليه كانسان ، فقد ألفه منذ عرف نفسه من نظام ضربات قلبه وتتالي تنفسه في مدد زمنية متساوية ، ونبه ذوقه إلى ذلك أكثر فأكثر طول الترحال وركوب الجمال فاتخذ الايقاع ميزاناً للغناء ثم للموسيقا .

ومن طريف ما روى عن منشأ الموسيقى ما رواه المسعودي في مروج الذهب « سأل الخليفة المعتمد ذات يوم الشاعر عبيد الله بن خرداذبة عن أصل الموسيقى فأجابه بقوله : قد قيل في ذلك يا أمير المؤمنين أقاويل كثيرة ، إن أول من استعمل العود هو لامك بن متوشالح بن محويل بن عباد بن أخنوخ بن قابين بن

آدم . وكان لامك ولد يحبه حباً شديداً اختطفه الموت فعلق جثته بشجرة فتقطعت أوصاله ولم يبق إلا الفخذ والساق والقدم من الاصابع ، فأخذ لامك قطعة من الخشب وهذبها وصقلها بعناية وصنع منها عوداً جاعلاً صدره (أي قصعته) بشكل الفخذ وعنقه بشكل الساق ورأسه (أي البنجق) بشكل القدم والملاوي مثل بها الاصابع والاوتار مثل بها العروق ، حتى إذا انتهى من ذلك عزف عليه وأخرج منه أصواتاً موسيقية وأنشد نشيداً محزناً مستصحباً العود . وقد اخترع توبال بن لامك الطبول والدفوف ، واخترعت ضلال بنت لامك أيضاً المعازف ، واخترع شعب لوط الطنابير ، واخترع الاكراد آلة موسيقية من آلات النفخ ليجمعوا بها قطعانهم . وأهل خراسان والاقطار المجاورة لها كانوا يغنون على الصنج وهو آلة ذات سبعة أوتار وكان لأهل الري وطبرستان والديلم الطنابير وكان غناء النبط والجرامقة بالميرارات ، وللهند الكنكلة التي ليس لها سوى وتر واحد مشدود على قرعة . وكان الحداء في العرب قبل كل غناء ، وقد كان مضر بن نزار بن معد في سفر فسقط عن البعير وانكسرت يده فجعل يقول (يا يداه — يا يداه) فطربت الابل لنغمة هذا النحيب وجدّت في سيرها، فوضعت العرب من ذلك شعراً من بحر الرجز وجعلوه للحداء ، ثم ارتقى رويداً رويداً إلى أن أصبح ذلك النوع المعروف عندهم بالنصب وهذا النوع أجناس : الركباني والسناد والثقيل والهزج الخفيف . وكان العود يسمى في ذلك العهد مزهراً وكان غناء أهل اليمن بالمعازف ولم يكن لهم في العزف سوى طريقة واحدة ولكن كان لهم نوعان من الغناء : الحميري والحنفي والأخير أحسنها » . ونحن نضع هذه الرواية أمام القارئ ولا نعلق عليها بشيء ما، ولكننا نريد أن نقول قبل أن نترك هذا الفصل أن الموسيقى تطورت ككل كائن متطور مع تطور الحياة وتقدم الزمن ، فبدأت ساذجة مع سذاجة الانسان القديم ثم أخذت تتعقد

وتزداد تعقيداً كلما أوغلت الحياة الاجتماعية في الرقي حتى أصبحت صورة حية لكل عصر من العصور الدائرة وأضحت الموسيقى العربية وهي وليدة امتداد التاريخ العربي صورة صادقة لما يتسم به الشرق من خيال وروحانية تميزه بوضوح عن مادية الغرب .

٢

الموسيقى في تاريخ العرب

كل شيء في الصحراء جميل وأجمل ما فيها فطرتها وبعدها عن التصنع والتكلف . فالطبيعة فيها بكر لم تتناولها يد الانسان بالتبديل والتغيير ، ولذا فهي تبوح للناظر اليهـا بأسرارها في انسجام وهدوء . وتجعل منه شاعراً موهوباً وموسيقياً حساساً ، وهكذا كان العربي في بداوته الجاهلية . فـفي قدرته على ارتجال الشعر موزوناً متناسق التفاعيل عذب القوافي لدليل على الموسيقية الفطرية التي اهتدي لهـا واهتدت اليه منذ فجر التاريخ لتخفف من وحشة الصحراء وجفافها ولتسعف الابل حين يجهدها السفر الطويل في حر الرمضاء وينهكها الجوع والعطش . فكان الحداء خير وسيلة لانعاشها لما فيه من الموافقة الظاهرة لحركة مشيها الايقاعي . يقول ابن خلدون وهو من مؤلفي القرن الرابع عشر وقوله هـذا دليل على صحة الفكرة القائلة بتوأمة الشعر والموسيقى عند العرب منذ القدم وأنهم كما قالوا الشعر بالسليقة دون معرفة بصناعته تزعموا أيضاً بالغناء من غير أن يعرفوا كنه الصوت وقوانين الغناء . « أما العرب فكان لهم أولاً فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون الكلام في تلك الاجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلاً بالافادة لا ينعطف على الآخر ويسمونه البيت ، فتلائم الطبع بالتجزئة

أولاً ثم تناسب الاجزاء في المقاطع والمبـــادئ ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها فلهجوا به فامتاز من بين كلامهم بحظ أكثر من الشرف ليس لغيره لأجل اختصاصه بهذا التناسب . وهذا التناسب الذي من أجل الاجزاء والمتحرك والساكن من الحرف قطرة من بحر تناسب الاصوات كما هو معروف في كتب الموسيقى إلا أنهم لم يشعروا بما سواه لأنهم حينئذ لم ينتحلوا علماً ولا عرفوا صناعة ، فكانت البداوة أغلب نحلهم . ثم تغنى الحداة منهم في حداء إبلهم والفتيان في فضاء خلواتهم فرجعوا الاصوات وترنموا » .

ولقد كان الترنم بالشعر من أوفى مظاهر فن الموسيقى عند العرب. قال شاعرهم :

تغنَّ بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار

ولذا فقد استأثر بأكثر اهتمامهم ، ففيه كانت تتفاخر القبائل ويتساجل النساء والرجال وهو الوثيقة التاريخية الكبرى التي تصور لنا واقعهم حينذاك والمرآة الصافية التي نرى على صفحتها أدق أمور حياتهم ، ولذا فقد كانوا يتفننون في تلاوته تفنناً قد يخرج به عما تجيزه القواعد اللغوية الموروثة واليك ما يقوله ابن خلدون في مقدمته أيضاً وهو يتحدث عن الغناء : « هذه الصناعة هي تلحين الاشعار الموزونة بتقطيع الاصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة ، ثم تؤلف تلك الانغام بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها ، لأجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الاصوات ، وذلك انه تبين في علم الموسيقى أن الاصوات تتناسب فيكون صوت ونصف صوت وربع آخر وخمس آخر وجزء من إحد عشر من آخر. واختلاف هذه النسب عند تأديتها الى السمع بخروجها من البساطة الى التركيب . وليس كل تركيب منها ملذوذاً عند السماع ، بل الملذوذ تراكيب خاصة وهي التي حصرها أهل علم الموسيقى وتكلموا عليها كما هو مذكور في موضعه . وقد يساوق ذلك

التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات إما بالقرع أو النفخ في الآت تتخذ لذلك فترى لها لذة عند السماع » . وقد عرف العرب في ذلك الحين من الآلات الوترية المزهر وهو عود ذو وجه من الرق والعود ذا الوجه الخشبي والصنج والمعزف ، ومن آلات النفخ المزمار والقصبة والشبابة والصور والناي وعرفوا من آلات النقر الدف والطبل والصنوج والجلاجل . كما عرفوا القضيب لضبط الميزان أو الايقاع .

وكانت أصول الالحان عندهم قديماً ثلاثة هي الغناء والحداء والتغبير : أما الغناء فيفرع إلى ثلاثة أوجه أيضاً : هي النصب وهو غناء الركبان في حداء الابل والفتيان في الخلوات وهو أصل الحداء كله ، وهو يخرج من أصل الطويل في العروض ويتلاءم معه . والسناد وهو النوع الثقيل ويكثر فيه الترجيع الكثير النغمات والتهليل الملئ بالنبرات والهزج وهو ما يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار وهو مطرب يستخف الحليم . وأما الحداء ويقال أن أول من أخذ بترجيعه هو مضر بن نزار حينما سقط عن جمل فانكسرت يداه فحملوه وهو يصيح وايداه وايداه ، وكان حسن الصوت فأصغت الابل اليه وجدّت في السير . ومن ثم تفنن العرب بعده بهذا النوع من الالحان . وأما التغبير فيكون في المراثي ويكثر فيه التهليل أو ترديد صوت بقراءة أو غيرها ، وعلله أبو اسحاق الزجاج بأنه يذكر بالغابر أي بأحوال الآخرة . وهذا اللون الساذج من التلاحين لا يصعب أن تتفطن له الطباع السليمة من غير تعليم ، لذا كان الشاعر في الجاهلية موسيقياً بطبعه . فان اتخذ له في بعض الاحيان مغنياً ينشد عنه شعره فما ذلك إلا كما يتخذ له راوية لالقائه . والسبب في عدم وصول شئ من موسيقاهم الينا خلافاً للشعر راجع إلى عدم وجود التدوين الموسيقي إذ ذاك واعتمادهم في حفظ الالحان ونقلها على حناجر المغنين ، لذلك اختفت باختفاء هؤلاء . والصحراء كما هي على وتيرة

واحـدة في مظاهرها الطبيعية . كثبان من الرمل وسهول مترامية الاطراف وجبال جرداء وواحات قليلة متناثرة ، فكذلك موسيقاها كانت ذات نغمة واحدة متكررة وألحان ساذجة فطرية . وكذلك كان شعرها ذا صبغة مستقرة وتكرر في التشابيه والاستعارات وسطحية في الافكار ووصف الوجدانات . ولا غرابة في ذلك فكلاهما ظل لحيـاة الصحراء . وكان العربي إذ ذاك حريصاً على التمتع بمسرات الحياة متعلقاً بالحب والخمرة وسماع الغناء والشعر والمزهر . ولم تكن المرأة بأقل حظاً منه في صلتها بهذه الأمور بل كانت تميز عليه بنوع من الالحان الحزينة في المناسبات الحزينة هي المراثي . ولئن كانت البـادية وحياتها البدائية تستأثر بأكثر سكان الجزيرة العربية في الزمن الواغل في القدم فقد أتى يوم انتهت فيه إلى بعضهم الحضارة الانسانيـة التي لا تعرف التوقف ، فعرفوا الحيـاة الحضرية وسكنوا المدن واعتادوا الاستقرار، فمارسوا الزراعة والتجارة وأسسوا قبل الاسلام ممالك على درجـة لا بأس بها من الحضارة تدل عليها ما غفلت عنـه عين الدهر من أطلال ونقوش وآثار كأهل سبـأ في اليمن والغـاسنة في الشام واللخميين في العراق . وكان لهؤلاء ولا سيما الاشراف منهم موسيقى تأثرت إلى حد ما بالمدنيات المجاورة التي كانت تنتقل اليهم رويداً رويداً عن طريق التجـارة والبعثات الدينية من يهودية ونصرانية والتي كانت تجوس خلال البلاد تبشر بدينها وتدعو اليه، وبسبب معاشرتهم لليهود الذين كانوا يقطنون في مواطن مختلفة من الجزيرة ولا سيما في يثرب التي اشتهرت بعد ذلك باسم المدينـة . ولا يخفى أن الموسيقى كانت مزدهرة في ذلك الحين عند الفرس لما كان لها من المكانة عند ملوكهم . وكذلك كان الحال في بلاد اليونان بل لقد تبوأت الموسيقى فيها مكانة لا تنازعها فيها دولة أخرى حتى عني بها علماؤها وفلاسفتها ودونوا أصولاً وقواعد ذات شأن ، وقد تأثر العرب بتيار هاتين المدنيتين تأثراً لا نستطيع انكاره ولكنه

بدون ريب كان محدوداً ضيقاً بحكم موقع بلادهم الجغرافي ، لذلك فقد احتفظت بطابعها العربي الذي ميزها ، وجعل لهـا وللمغني العربي شخصية خاصة تدل عليه .

وقد حفل تاريخ الجاهلية بأخبار القيان يستقدمن من بلاد العجم والروم بآلاتهن الموسيقية حتى يكاد لا يخلو منهن بيت من بيوت الاشراف ، وكانت حرفة الغناء محصورة فيهن أولاً فكن يذعن أغانيهن تارة بلغة بلادهن وتارة باللغة العربيـة . وبقي الامر كذلك حتى انتقل الامر منهن إلى المغنيات العربيـات . وهذا هو حسان بن ثابت يصف بعض ليـالي الجاهلية كما روى صاحب الاغاني « لقد رأيت عشر قيان خمس روميات يغنين بالروميـة بالبرابط وخمس يغنين غنـاء أهل الحيرة » . وقد روي أن أول من غنى منهن جاريتان كانتـا لمعاوية بن أبي بكر من قبيلة عاد الهالكة وهما المدعوتان في الاخبـار بالجرادتين . وسمع أيضاً غيرهما في المدينة والطائف وخيبر ، إلا أنها على الخصوص كانت ألحانها في الطبقة الاولى من الغنـاء العربي حتى ليضرب به المثل فيقال (تركته تغنيه الجرادتان) غير أن الغناء ظل طيلة هذا العصر محصوراً في طبقة القيان والموالي اذ أنف منه كرام القوم كحرفة رأوا أنها غير ذات بال عند أشراف الفرس وهم أعرق منهم في الحضارات فساروا على سنتهم في هذا الأمر .

ثم جاء الاسلام برسالته الخالدة وقرآنه العظيم فاعتنق الناس الدين الحنيف في قوة وحماس شديدين بعد أن مروا بفترة من التمتع كانت كافية لتفهمهم حقيقته وسموه فتأثرت به حياتهم في جميع مناحيها وافتتنوا بالقرآن الكريم المرجع الاول له فانصرفوا لدراسته وحفظه واستنباط أحكامه كما انصرفوا للحديث يجمعونه في صدورهم ويحكمونه في القضايا التي لم ينص عليها القرآن أو لم يتناولها بالتفصيل

والشرح ، فشغلهم كل ذلك عن الدراسات الدنيوية من علمية وفنية طوال صدر الاسلام ، في زمن النبي ﷺ اشتغلوا بنشر الدعوة ومحاربة كل من وقف في سبيل انتشارها أنصاراً ومهاجرين ، فكان من الطبيعي أن لا يبقى لهم من الوقت ما يساعدهم على التفرغ لدراسة شيء من علوم الدنيا إلا ما كان يتصل منها إتصالاً وثيقاً بالدين ، وكانت الموسيقى من جملة ما غفلوا عنه حتى إذا جاء دور الأذان المشروع بألفاظه الجليلة اختير لالقائه والترنم به بلال الحبشي وكان أول من سبق إلى الاسلام وتحمل في سبيله الأذى والتعذيب ، وكان على حد تعبير الرسول ﷺ (ندي الصوت) فكان يقول عليه الصلاة والسلام « أذن يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً » . ولذلك اختاره لهذه المهمة التي لا تخفى قيمة الصوت الحسن فيها لكل ذي بصيرة . وعلى ذلك كان الأذان لوناً جديداً من ألوان الموسيقى الدينية التي تأخذ بمجامع القلب . وقد اشتهر في زمن بلال هذا كثير من القيان منهن شيرين مولاة حسان بن ثابت وهي التي أخذت عنها المغنية المشهورة عزة الميلاء وغيرها من القينات .

ثم جاء دور الخلفاء الراشدين وتولى الخلافة بعد موت الرسول ﷺ أبو بكر الصديق رفيقه في الغار ، غير أن الناس ما تسامعوا بذلك حتى ارتد الكثيرون منهم عن دين الله ممن كانوا منافقين أو في قلوبهم مرض ، وامتنعوا عن دفع الزكاة فتجرد لحربهم أبو بكر رضي الله عنه وشغل بهم زمناً طويلاً فلم تسمح له هذه الاحداث الجسيمة بالاضافة لزهادته وشدة عبادته في أن يستطيب سماع الموسيقى في وقت كله جد وجهاد . ثم وُلي بعده عمر رضي الله عنه فكان كما سبق أن مر بنا لا يرى غضاضة في سماع لون منها هو ذلك اللون الرصين الذي يدعم الفضيلة ولا يتنافى مع قدسية الدين . ومن بعد عمر جاء دور عثمان رضي الله عنه فاتسعت الفتوحات في عهده وأتم بذلك ما بدأ به سلفه العظيم ، وكان ذلك سبباً

في تعرف المسلمين على مدنيات جديدة وبلاد جديدة وشعوب كانوا يجهلون عنها الكثير من الاشياء ، وكان لهذا التعرف أثره الذي لا ينكر في نفوس العرب وهم يبنون تاريخهم العظيم . وكانت أظهر هذه المدنيات لفارس والاغريق فتلقفتها العبقرية العربية وتناولتها بالتبديل والتهذيب وأخضعتها لشخصيتها النافذة تتجلى بعد زمن قصير النبوغ العربي في فن العمارة ، وظهر ذلك فيما تركوا لذمة الدهر من مبانٍ وقصور تعد مفخرة على الايام . وكان استقرار حالهم إلى حد بعيد وتتالي انتصاراتهم مما يستدعي التفاتهم نوعاً ما إلى أمور الدنيا . ولذا فقد بدأوا يتجهون إلى الموسيقى والموسيقيين بشيء من الاهتمام ، فأخذت الاولى مكانها في مجالس سمرهم وافراحهم بجانب الشعر ، كما حفلت بالآخرين بيوت الأمراء والاشراف، حتى أن رائقة المغنية وتلميذتها عزة الميلاء كان لهن في المدينة حفلات مشهودة يحضرها كرام القوم ومن جملتهم حسان بن ثابت رضي الله عنه ، بل أخذ العلماء يتعاطون الغناء ويحترفونه . ثم زاد انتعاش الفنون في زمن علي رضي الله عنه وكان هو نفسه من فرسان الشعر ، فأخذت الموسيقى بجانب الشعر يسيران في اتجاه فني جديد . وكان المغنون في ذلك العصر يتشبهون بالنساء في كثير من عاداتهن وتقاليدهن وأول من اشتهر منهم (طويس) ويقال إنه أول من غنى بالعربية غناء يدخل في الايقاع ويصحب بنقر الدف . وقد تعلم الغناء من الأسرى الفرس حينما كانوا يشتغلون في المدينة. وكانت الآلات الموسيقية المعروفة في العصر الجاهلي هي عينها التي تستعمل في صدر الاسلام، غير أن العود الحديث ذا الوجه الخشبي بدأ يحل محل الآلتين القديمتين المزهر والمعزفة ، كما أصبح الطنبور هو الآلة المفضلة في العراق وقد دخلا عن طريق من سبق من الاسرى والسبايا أو انتقل بنفسه إلى الحجاز من غير العرب وكان محترفاً أو محباً للغناء وتلحين الشعر .

ونستطيع هنا أن نؤكد قول القائل : إن الخلفاء الراشدين جعلوا من الاسلام ديناً وجعل الامويون منه امبراطورية ، إذ أنه ما انتقل السلطان اليهم حتى قاموا بفتوحات واسعة ، فوصلوا شرقاً إلى الصين وغرباً إلى المحيط والاندلس ونقلوا مركز الخلافة إلى دمشق بعد أن كان في المدينة ، وزاد اتصالهم بالمدنيات الفارسية واليونانيـة والمصرية ، فازدهرت الحضارة الاسلامية في زمنهم وعمت الشرق ثم فاضت عنـه إلى أوربا فنبهتها من رقادها وحفزتها للاصلاح . وكان للموسيقى نصيب من هذا الازدهار إذ بدئ في هذا العصر بوضع أول تصانيف عربية في أخبار الموسيقى والغناء. فوضع يونس الكاتب كتابيه (النغم) و(القيان) فكانا نواة لما صنف بعد ذلك ومرجعاً لكتاب الاغاني المشهور . كما وضعت الالحان العربية لأول مرة على إيقـاعات مختلفة : فعرف منها الثقيل الاول والثقيل الثاني وخفيف الثقيل والهزج والرمل . ونبغ من المغنين والمغنيات جماعة كان على رأسهم سائب خاثر الذي عكف على الاستماع لنشيط الفـارسي عندما قدم المدينة ليغني بلغته ، ولقي فيهـا نجاحاً عظيماً فعنّ لسائب أن يصنع مثل غنائه باللغة العربية فنجحت فكرته ، وكان منه أول غنـاء متقن في هذه اللغة . كما قـلد نشيطاً في استعمال العود أثناء الغناء بعد أن كان السائد حتى ذلك الوقت استعمال القضيب . ثم انتقل مع مولاه عبد الله بن جعفر إلى دمشق حيث غنى لمعاوية بن أبي سفيان وأعجب به النـاس وأقبل المغنون عليه ليأخذوا منه طريقته ، وكان من بين هؤلاء أربعة نابغون هم أول طلائع النهضة الموسيقية العربية ابن سريج ومعبد ثم عزة الميلاء وجميلة. وفي ذلك الحين كانت مكة تصغي لغناء فحل آخر من فحول الغناء لا يقل شأناً عن سائب ولا يختلف معه في طريقته وهو ابن مسجح وكان قـد سمع في حداثتـه بعض الفرس يغنون وهم يرممون المسجد الحرام بعـد حريق كبير امتـد للكعبة المطهرة وأعجبه غنـاؤهم فنقله إلى شعر عربي وشجعه مولاه على المضي في طريقـه ، فرحل إلى الشام وأخذ عنهـا

ألحان الروم ، ثم إلى فارس فتلقن منها كثيراً من أصول الغناء والعزف ، ثم عاد إلى الحجاز وقد أخذ ألواناً مختلفة من الفن خرج منها بمذهب خاص تبعه فيه كبار المغنين كمعبد وابن سريج والغريض وابن محرز . وفي تلك الفترة من التاريخ العربي بدأ يرتفع مقام الموسيقيين شيئاً فشيئاً حتى وصلوا إلى قصور الخلفاء ونالوا عندهم الحظوة والاكرام ، فشجعهم عبد الملك بن مروان تشجيع الهاوي الذي تذوق الموسيقى وألمّ بأنواع الغناء ، وسليمان بن عبد الملك يقيم لهم المسابقات ويجزل لهم العطاء . على أنه يجب أن لا ننسى أن أول من حوّل الغناء والموسيقى إلى شغف مفرط وهواية محببة ذات قيمة بعد أن كانتا أداة تسلية في المناسبات فحسب ، كما تعلم صناعة تأليف الالحان والضرب على العود والتوقيع بالطبل والدف هو الوليد بن يزيد الذي أولع بها كما أولع بقرض الشعر ونقده وسماعه لما توفر له من عناصر الفن الشعري والموسيقى الصنوان اللذان لا يفترقان. فكان عالماً بصناعة تأليف الالحان . وقد بلغ من إكرامه للموسيقيين أنه عندما مرض معبد آواه في قصره وتولى أمره ، فلما مات شيع جثته بنفسه ومشي في جنازته من قصره إلى موضع القبر . وقد فعل الاشراف والنبلاء والسراة فعل ملوكهم وتنافسوا في اكرام الموسيقيين ، فكان سائب خاثر ونشيط منقطعين لعبد الله بن أبي طالب يقيمان له مجالس طرب حافلة يشترك فيها مشاهير المغنين .

على أن عصر الموسيقى الذهبي إنما كان حقيقة زمن الخلافة العباسية إذ بلغت فيه ذروة مجدها حيث كثرت الآلات وتنوعت وشاع استعمالها ، حتى بلغ عدد العازفين ذات مرة مئة قينة في محل واحد . كما زادت المقامات وطرائق الايقاع حتى تعددت في اللحن الواحد ، كما أضحى الموسيقيون من ندماء وجلساء الخليفة وكان مقر المهدي بن الخليفة المنصور باني مدينة بغداد مجمعاً للموسيقيين ، لأنه

كان حسن الصوت شديد الشغف بالموسيقى والغناء . وفي هـذا العصر تغيرت نظرة العرب المتعالية إلى هذا الفن ، فدخل بعض أبناء أشرافهم في زمرة المشتغلين به منهم ابن جامع الذي يتصل نسبه بقريش ، وبعض من أمرائهم كابراهيم بن المهدي والخليفة الواثق الذي يروى أنه أحذق من غنى وضرب على العود حتى بلغ ما أضافه إلى الموسيقى مئة لحن . وكثر عـدد الموسيقيين فعرف منهم ابراهيم الموصلي وابنه إسحاق ويحيى المكي وابراهيم المهدي وابن جامع وحكم الوادي ومخارق وفليح ابن أبي العوراء وزلزل وابن محرز وحمـاد من الرجال . وجميلة وحبـابة وسلامة وعزة الميلاء من النساء .

وعاشوا في هذا العهد عيشة يحسدهم عليها أعز الناس لما كان ينالهم من العطايا حتى بلغ ما أخذه ابراهيم الموصلي من الخليفة الهادي ذات يوم مئة وخمسين الف دينار ، حتى قال الموصلي (لو عاش الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب) بينما كان عباقرة الفن في البلاد الاوربية يعيشون عيشة الفقر والعوز . وهـذا موتسارت وهو أنبغ الموسيقيين في القرن الثامن عشر ما كاد يستقر في مسقط رأسه زالتسبرج من بلاد النمسا حتى استدعاه حاكمها وضمه إلى قصره ليعيش فيه كما يعيش الخدم . ولمـا أدركته المنية وهو في أشد الفقر لم تجد زوجه ما تجهز به جنازته ، فبقيت الجثـة مرهونة في المدفن على ثلاثة آلاف جولدن إلى أن وفى القيصر ذلك الدين . ولم يكن هايدن قبـله ولا بتهوفن بعـده بأسعد حالاً منـه ، وفي ذلك أكبر دليل على سمو المدنية العربية وتقديرها للنبوغ في أي مجال من مجالات الحيـاة .

واستمر الأمر كذلك حتى انقضت تلك العصور الذهبيـة ، وخمدت جذوة الحضارة العربية الاسلامية من جراء تضعضع امبراطوريتها وتشتت شملها وتفرقها إلى دويلات صغيرة متناثرة متناحرة ، فأصاب هذا الفن التجمد ، كما أصاب غيره

من معالم الحضارة الاسلامية العربية ، ولم يتطور بعد ذلك إلا بمقدار ظهر في عصر الموشحات حيث اقتضت الضرورة بذلك إلى اختراع الالحان الكثيرة المتعددة لتلائم أوزان الموشحات المبتكرة . ومن ثم بقيت الموسيقى طوال العهود المظلمة التي تلت ذلك العهد تقليداً لما جاء به القدماء ، كما هو الشأن في الأدب العربي في تلك العصور إلى أن استيقظ العرب من نومتهم الكبرى في أوائل القرن الحالي ، فانتبه مع يقظتهم هذا الفن واستعاد بعض مكانته في مصر أولاً ، وفي غيرها بعد ذلك . فكان من أشهر فنانيها وقتئذ عبده الحمولي وطبقته ، ثم انتفض انتفاضته الثانية على يد سيد درويش وعبد الحي . ثم جاء بعد هذه الطبقة دور جنح فيه الفن إلى شيء من التأثر بالالحان الغربية ولكن بتحفظ ويسر شديدين حتى أتى الموسيقار محمد عبد الوهاب وخطا في هذا السبيل خطوات جريئة موفقة ، ومن هنا انبعث من حناجر الناس ثلاثة أصوات : صوت من هؤلاء الذين تثقفوا بثقافة الغرب وأعجبوا بحضارته . فهم يرون في التمسك بالموسيقى الشرقية القديمة نوعاً من الرجعية ، ولذا فهم يدعون لنبذها والانتقال للموسيقى الغربية بدون قيد . وصوت من هؤلاء الذين استطاعوا أن يضبطوا أنفسهم أمام بهرجة المدنية الغربية ، وأن يحكموا عقولهم ويقدروا مصلحة وطنهم وقوميتهم في المحافظة على التراث العربي الخالد ، ويعدون نبذه ضياعاً للمجد العربي وتبذيراً للعبقرية العربية . أما الصوت الثالث فصوت أكثر الناس وأعقلهم . صوت هؤلاء الذين يأخذون بالحديث الشريف الذي يقول : (الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها) فلا ضير علينا أن نأخذ ما يناسبنا من محاسن الموسيقى عند الغرب مع التمسك بموسيقانا الشرقية ذات الطابع الخاص جرياً وراء سنة التطور والارتقاء . أما أن نستجيب للصوت الاول فهو المسخ المشوه بعينه ، واما أن نستجيب

للصوت الثاني فهو الجمود المضارع لجمود الموتى . ولن تتخلص الموسيقى في بلادنا من اضطرابها وحيرتها بين القديم والحديث حتى تسلك الطريق السديد المعقول على يد أناس جمعوا إلى دقة ذوقهم الفني روحاً متعصبة لشرقيتها مخلصة لها كل الاخلاص .

٣

فضل العرب على الموسيقى

لقد كان للعرب يد على الحضارة في هـذا الفن لا تقل عن يدهم في سائر الفنون والعلوم ، فبحثوا فيهـا كعلم أشبعوه دراسة وتمحيصاً من جميع وجوهه كنظرية الصوت والابعـاد والاجناس والانواع والجموع والانتقال والتأليف . وأضافوا إلى ذلك أبحاثاً في الايقـاع ، وابتدعوا في العهود الاسلامية أنغامـاً لم يسبق لها مثيل . وكانوا قد أخذوا العود والصنج من فارس ، والطنبور من الديلم والزيخ من خراسان وله سبعـة أوتار والقيثارة واللوزا وهي كالرباب لهـا خمسة أوتار من الروم والكنكلة من الهند وهي ذات وتر واحد . ثم جمعوا بين هؤلاء الآلات الكثيرة وفرعوا عنها وحسنوا فيهـا ، فزاد ابراهيم الموصلي وتراً خاصاً على العود . واخترع زرياب مضراب العود فجعله ريشة من قوادم النسر بعد أن كان من الخشب .

وكان لجامعـة (بيت الحكمة) وهي الجامعة العربيـة الاولى لدراسة العلوم والفنون التي بناها المأمون في بغداد والتي اشتغل فيهـا فطاحل العلماء ومنهم يحيى ابن أبي منصور وبنو موسى وغيرهم بترجمـة علماء اليونان . كان لهذه الجامعة فضل كبير على سائر العلوم ومن بينهـا الموسيقى ، وكان موقف المأمون المشرف من العلوم مشجعاً للخلفاء بعده لينسجوا على منواله في تشجيع الفلاسفة والعلمـاء

لاستقراء العلوم المختلفة وترجمتها للغة العربية . ومما يذكر للعصر العباسي بالفخر أن ظهرت فيه عناية خاصة باثبات قواعد الموسيقى العربية ونظرياتها . فكان اسحق الموصلي أول من اعتنى بهذه الناحية من التأليف بعد يونس الكاتب الذي ظهر في عصر بني أمية كما أسلفنا ، ثم جاء الخليل بن أحمد فوضع كتابين في الموسيقى يعتبران من المصادر الاولى . ثم جاء بعدهما اسحق بن يعقوب الكندي فكتب ما يربو على سبعة مؤلفات في هذا العلم ونظرياته ، وكان هو أول من استعمل في كتبه تدوين الموسيقى بالحروف بشكل منظم . ومما يذكر أن هارون الرشيد كلف ابراهيم الموصلي وابن جامع وفليح أن يختاروا من ألحان العرب كلها مئة لحن ثم أمرهم أن يختاروا عشرة منها ثم أن يختاروا من العشرة ثلاثة ففعلوا . وكان اللحن الاول لمعبد والثاني لابن سريج والثالث لابن محرز .

وقد روي أن زرياب وليد أسرة الموصلي العريقة في هذا الفن قد أخذ الموسيقا عن أهله فأجاد وفاقهم بمواهبه الفنية فصرفوه إلى المغرب حسداً له فلحق بالحكم بن هشام ابن عبد الرحمن الداخل ، فخف هذا لاستقباله وركب له عدة أميال ، وبالغ في اكرامه ومنحه الاقطاعات ، وهناك بعث فن الموسيقى العربية ، وأنشأ له فيها مدرسة خاصة تنوقلت بعده إلى زمن الطوائف .

غير أن أعظم من بحث في هذا الموضوع هو الفارابي وأهم كتبه (كتاب الموسيقى الكبير) فقد حقق فيه نقص ما أتى به اليونان ، وخصص دراسة مفصلة للآداب الموسيقية ، كما عالج المبادئ الفيزيائية والفسيولوجية للصوت والموسيقى ، وهو الذي وضع النوتة لطبقات الطنبور الخراساني واللوزا ، وهو الذي اخترع القانون بشكله وتركيبه الحالي وأوجد آلة مؤلفة من عيدان يركبها ويضرب على أوتارها وتختلف أنغامها باختلاف تركيبها ، وهي التي استعملها في بلاط سيف الدولة فأضحك ثم أبكى ثم أنام .

ومن جملة الذين بحثوا في الموسيقى اخوان الصفا ، كما وان الرئيس ابن سينا كتب فيها رسالتين عالجها فيها من زاوية الفلسفة والعلم . أما أهم من عالج هذا الموضوع في المغرب فهو ابن باجه وتعتبر أبحاثه من حيث أهميتها بمنزلة أبحاث الفارابي في الشرق . وفي نفس العصر تناولها ابن رشد في البحث والتعليق على كتاب أرسطو فيها . ثم جاء حجة الاسلام الغزالي فعقد لها فصلاً خاصاً في كتابه الاحياء ، وهناك غير هذه المؤلفات كتب عديدة غيرها تبحث في هذا الفن منها العمرة ومقدمة ابن خلدون وغيرها ، ولكن أهمها الاغاني لأبي الفرج الاصبهاني وقد طبق صيته الآفاق .

وقد نقل العرب معهم إلى الاندلس تراثهم الشرقي من الآلات الموسيقية ، ثم تفننوا هناك فيها وزادوا عليها فأصبح لديهم منها في أنواعها الثلاث الآلات الوترية وآلات النقر وآلات النفخ ثروة وأي ثروة ، وقد ضربوا بسهم وافر في التأليف الموسيقي وابتكروا فيه النوبة والموشحات والزجل حتى لقد أوفدت البعوث من أوربا وغيرها لدراسة ما وصلوا اليه وترجمة ما ألفوه ، ومن أعضاء هذه البعثات جربرت وهرمان وكنتراكت وجيني الاشبيلي وقسطندي الافريقي . وقد نقل هؤلاء والكثيرون ممن اشتركوا معهم في الدراسة الكثير من علوم العرب وكتبهم في الموسيقى وعادوا إلى بلادهم فأصبحوا من أعلامها . وقد بقيت شخصية الموسيقا العربية طاغية حتى بعد سقوط الاندلس في يد الاسبان بزمن طويل . فقد ظل ملوكهم محتفظين في بلاطهم بالموسيقيين العرب الذين كانوا درة أفراحهم وأعيادهم مما اضطر شعراء الاسبان إلى إنشاء الاغاني لهم باللغة العربية ، كما انتقلت الآلات الموسيقية العربية إلى أوربا محتفظة بأسمائها في كثير من الاحيان كالعود والقيثارة والنقارة والطنبور والرباب ، وبذلك بقيت الموسيقى العربية تسيطر على أوربا حتى بعد عصر الاصلاح كما سيطرت على أقرب مكان من الاندلس في افريقيا فسيطرت

على بلاد تونس والجزائر ومراكش ، ولا تزال تحتفظ بطابعها فيها وفي بلاد الاتراك والاكراد والفرس والافغان حتى اليوم ، كما انها تتقارب كثيراً مع باقي أنواع الموسيقى الشرقية ولا سيما موسيقى بلاد الهند وما يتاخمها ، ثم مع موسيقى شرق آسيا كموسيقى بلاد الصين واليابان وما يتصل بها من الجزر . ولذا نرى أنه حينما نسمع لحناً أو ألحاناً من هذه البلاد لا نشعر بأننا غرباء عنه ، فكأنه جزء من موسيقانا وإن اختلفت لهجته من حيث نوع الاصوات ولون التأليف وأسلوب الأداء .

يقول الموسيقار الكبير تيجرمان مدير المعهد الموسيقي (تيجرمان) : « للموسيقى الشرقية جاذبية تسحر الأذن الاوربية ، وأن الشجن الذي يتغلغل فيها مؤثر في نفوسنا وأريحيتنا . ولقد كنا نتمثل في الموسيقى الغربية قبل أن نرى الشرق صوراً تحيى في خواطرنا حين استماعنا اليها في عرضها التصويري ذلك بأن في خصائص إيقاعها نشوة يسكر عبيرها. ولهذا كان للموسيقى الشرقية في كل العصور تأثير في الموسيقى الغربية بلغ أشده في القرن الماضي بعد انقضاء عصر الكلاسيك وعصر الرومانتيك حيث بحثت أوربا عن أداة جديدة للتعبير ، وكذلك كان للموسيقى الشرقية دائماً سبل معبدة إلى الموسيقى الغربية. ووجدت موسيقى البلاد الغربية المتصلة بالشرق جغرافياً وثقافياً في الموسيقى الشرقية وحيا قوي التأثير تجلت مظاهره بوجه خاص في اسبانيا وروسيا وهما بلدان أعجب العجب بعد الشقة بينها في طابعها وحميتها ، ومع ذلك فقد ظهر معدن الموسيقى الشرقية في كليهما ، وأن تلون كل بلد بلون خاص ، وجنى البلدان من البذور الشرقية التي غرست فيها ثمراً طيباً شهياً » . ويقول الدكتور هانزهكمان « نعم إنه من الواضح ومن الميسور أن نعرف أن العود انتقل من العرب إلى أوربا ، وأنه قد عبر هو والالحان العربية البحر

الابيض المتوسط ، وأن كثيراً غيره من الآلات الموسيقية التي تلعب الآن دوراً هاماً في الموسيقى الغربية سلكت هذا الطريق . وأن آلة الكمان أصلها آلة الرباب والبيانو أصله القانون أي أنه في العصور الوسطى كان الشرق دائماً موضع وحي وإلهام للشعوب الاوربية كما كانت الحال في التاريخ القديم قبل الميلاد وقبل التاريخ وكما هي الحال في العصر الحاضر وإن جاء هذا التأثر بشكل آخر . نعم إن الميسور أن نستدل بسهولة على هذا كله ولكن يبقى دائماً سؤال معقد وهو كيف حدث هذا التباين في الغناء الاوربي والغناء العربي ؟ وكيف حدث هذا التباين الشديد في اللون العربي على الأقل ؟ ألا يتعارض هذا مع ما سبق أن ذكرناه ؟ هذا التباين موجود فعلاً ولكن لم يكن موجوداً دائماً بل على العكس فان الاثنين مصدرهما واحد ، فلقد كانت أوربا تغني طوال القرون الوسطى على طريقة اللون الصوتي الشرقي . ولقد ظل الأمر كذلك قروناً طويلة حتى أوجد الايطاليون في العصر الحديث حوالي القرن السابع عشر ما سموه الغناء الجميل وهو النوع المستعمل الآن في أوربا في الغناء وهو ما أكسب الغناء الفني هذا اللون الصوتي » .

الفَصْلُ الخَامِسُ

(١) الموسيقا في خدمة البشرية
(٢) من هم الموسيقيون حقاً ؟
(٣) من المهد الى اللحد
(٤) سحر عجيب لا يقاوم
(٥) ألحان في الطقوس الدينية
(٦) كيف تنساب الانغام

١

الموسيقا في خدمة البشرية

لم يتح لأي فن من الفنون من النفع للبشرية بقدر ما أتيح للموسيقى ، فهي من الناحية التعبيريه أشد الفنون تعبيراً عن خوالج النفس وأقدر على إيصال هذه الخوالج إلى نفوس الآخرين ، سيما وأن سبيلها إلى النفس الانسانية هي حاسة السمع . أما الرسم والنحت مثلاً فلا يعبران إلا عن موضوع خاص أراد الفنان إظهاره في لوحته أو تمثاله ، وقد لا يستطيع مع هذا نقل ما أودعه في أحدهما . أو فيهما من أحاسيس وأفكار بدون شرح أو تعليق مهما طال تأمل الناظر لهما . اللهم إلا إذا كان هذا الناظر يحمل بفطرته إلهاماً مثل إلهام الفنان الصانع وحدساً مثل حدسه ، ومثل هذا الصنف نادر في الناس والنادر لا حكم له . وهي من الناحية التأثيرية أشدها تأثيراً إذ قد تصحبنا الانغام الموسيقية زمناً يطول أو يقصر بحسب قوة تأثير اللحن وشدة وقعه . يقول شوبنهاور : (إن أحسن موسيقى هي تلك التي لا نستطيع وصف أثرها في نفوسنا عند الاستمتاع بها حيث تذهب بنا إلى جنة الخيال البعيدة عن مرارة الحقيقة الراهنة) فنرقد مرتاحين على هدوئها أو نضطرب ونتحمس لثورانها ، أو نبكي ونتألم لما تثيره في نفسنا من ذكريات محزونة ، وقد لا نعجز عن ترديد هذا اللحن والدندنة به بوعي أو بدون وعي ونحن نمارس عملاً ما ، بينما الاحاسيس التي تبعثها الصورة أو التمثال

لا تلبث غير زمن قصير . حتى تموت في نفوسنا أو ترسب في شعورنا إلى أن يوقظها ويخرجها إلى عالم الحس شبه لها قريب أو بعيد. فلأجل هذا استعانت السينما بالالحان على إيضاح المواقف المثيرة في كل رواية ، وليزداد وقعها في النفس ، كما أنه عني كل العناية في الاصلاحيات والملاجئ الراقية بادخال الموسيقى فيها لتكون وسيلة ناجحة من وسائل الاصلاح وتقويم الاخلاق . فقد أثبتت الوقائع أن كثيراً من ذوي الطباع الخشنة قد رقت نفوسهم وتهذبت أخلاقهم بفضل ممارستهم الموسيقى . ثم هي ولا ريب أداة لتخفيف المتاعب وتقويم الامزجة المنحرفة ومداواة العلل الناشئة عن الانهاك العقلي والجسماني . وكان أبقراط يدعو لذلك ويعالج مرضاه بالموسيقى . وقد لمس فولتير هذه الحقيقة في لذعاته الانتقادية حيث قال : « إنما نذهب إلى الأوبرا لتيسير حركة الهضم » . وقد أثبت العلم هذه الحقيقة فيما بعد ، كما ظهر أن الموسيقى تعيد إلى الاذهان الذكريات المنسية أسرع من غيرها من وسائل التذكير فهي أنجع علاج لضعف الذاكرة أو فقدها . وقد أجريت اختبارات في شيكاغو فعولج مئة مريض بواسطة أحد الماهرين في عزف البيانو وتدرج بهم من ألحان الطفولة إلى اليفاع حتى صادفت الالحان منهم هوى فأعادت ذكرياتهم المنسية .

على أن الناحية الهامة التي لفتت أذهان العلماء في الزمن المتأخر إلى أهمية الموسيقى هي مشاركتها في شفاء بعض الامراض المستعصية لا سيما النفسية والعصبية منها . وأقدم ما يروى من ذلك ما كان من أمر شاوول ملك بني اسرائيل حين تخبطه روح السوء فكان يعزف له داود على المزهر فتسكن نفسه وتذهب سورة غضبه . ويروى عن فيليب الخامس أحد ملوك اسبانيا أنه اعتراه مس وكانت الملكة تعرف شدة ميله إلى السماع فأرسلت إلى فارينلي الموسيقي الشهير في مدريد تستقدمه ، وأقامت له مجلس سماع في دار تجاور مقام الملك . فلما سمع

الملك أول فصل من غنائه تنبه كمن استيقظ من نوم عميق ، وفي الفصل الثاني طرب وارتاح فأمر بأن يؤتى به ليغني بين يديه ، وبعد أن انتهى من غنائه أثنى عليه وجامله وأمره أن يقترح عليه ما يتمنى . وكان فارينلي قد اتفق مع الملكة على شيء فسأله أن يأذن في حلق عارضيه وإلباسه ملابسه وأن يحضر في مجلسه كالمعتاد بعد أن احتجب طويلاً فأجابه إلى ما سأل . وما زال فارينلي يسمعه غناءه كل يوم وهو في مجلسه حتى عاد إلى ما كان عليه من سلامة العقل . وأشهر من مارس معالجة الامراض بالنغم ليونار كودننغ الطبيب الاميركي وطريقته في ذلك أن يضجع المريض على ظهره فوق سرير خاص ويظلله بخيمة لا منفذ فيها حتى يلفه الظلام من كل جانب ثم يجعل في رأسه كمة من جلد لين يتصل بها مسمعتان يجعلها على أذني المريض ويتصل بها سلكان يتصلان بفونوغراف يسمع المريض عن طريقها أنغاماً لطيفة كما يبصر على شاشة بيضاء يرسلها في جانب السرير صور أشباح مختلفة وألوان مبهجة بواسطة الفانوس السحري . وبتوارد هذه المؤثرات على سمعه وبصره معاً لا يلبث أن يدب النعاس في عينيه فينام نوماً عميقاً يتخلله أحلام لطيفة . فاذا تكررت هذه العملية مراراً أدت بالتدريج إلى شفاء المريض .

يقول الاستاذ هيتو بريبرد في محاضرة له عن أثر الموسيقى في صحة الاجسام « وقد وجد أن الموسيقى لها من الأثر في تهدئة الاعصاب والترفيه عن النفوس بقدر مالها في استمالة القلوب وتنبيه المشاعر ، وأنتم تعلمون أن توتر الاعصاب والانفعالات النفسية تسبب انهاكاً شديداً للجسم والعقل معاً ، ولهذا نجد في الموسيقى غذاء روحياً عجيباً لانعاش الاجسام واستعادة نشاطها . ثم ان الغارات الجوية والأثر الفظيع الذي يخلفه ضرب المدافع الثقيلة على عقول الناس قد واجهت الاطباء بحالات بشعة من الامراض العصبية ، فلقد أدهش الاطباء ما استطاعت الموسيقى العلاجية فعله في شفاء بعض هذه الحالات ، فقد كان أثرها واضحاً في

النبض وتنظيم دورة الدم وإعادة الاعصاب إلى هدوئها وكلها أمور جوهرية في قيام الجسم الانساني بوظيفته على الوجه الاكمل . وفي أمريكا يوجد عدد من المستشفيات التي تعالج فيها الامراض العصبية بواسطة الموسيقى فقط . فبعد تشخيص كل حالة على انفراد يوضع برنامج موسيقي خاص لعلاجها. وتختلف هذه البرامج باختلاف الحالات وباختلاف طبيعة المرض العصبي المصاب به المريض ولعلكم تذكرون أنه قد ورد في كتاب ألف ليلة وليلة : (إن الموسيقى طعام لبعض الناس ودواء للآخرين) . ولا ريب في أنه بعد الوصول إلى تلك النتائج الباهرة للموسيقى العلاجية في زمن الحرب سوف يستطيع علماء النفس في زمن السلم أن يبحثوا عن الطرق التي يمكن بها جعل حياة الفرد العادي أشد يسراً وأكثر راحه وسعادة عن طريق استخدام الموسيقى . وهم على يقين من ذلك لأن الفرد العادي في انكلترا لم يكن في يوم من الايام أسعد حقيقة مما كان في أيام الملكة اليصابات وقت أن كانت بريطانيا في طليعة الشعوب الموسيقية في أوربا ووقت أن كان صوت الموسيقى العذبة لا ينقطع من منازل انكلترا » . وقد أكد العالم الايطالي (أساجيولي) أن الموسيقى تنسق دورات الجسم العضوية غير المنتظمة فيصيب المرضى من ذلك شعور بالهناءة وهدوء البال ، كما تنسق أيضاً الخواطر المتناقضة والسجايا المتنافرة التي تكدر الدورة العصبية ، على شرط أن يختار منها ما يتناسب مع روح العلاج ، ويقوي على الوصول إلى نفس المريض ، وأن يكون الوجدان والفطرة السليمان هادبين إلى اختيار ما يناسب كل مريض من الالحان كما هو الشأن في كل علاج ، ذلك لأن الموسيقى التي يحبها المريض هي التي تنفعه . فالانغام المفرحة تقوى معها دقات القلب والمحزنة تؤثر على العصب وتجعل النغمة عريضة غير منتظمة . ولذا كان الفونوغراف أسهل استعمالاً وأشد خضوعاً لنا من المذياع ، ولا أدل على ذلك من تأثير قطعة ايرل كوينج لبيتهوفن

على مرضى المانخوليا ، وقطعة تانهويزر لفاجنر على مرضى الغضب السريع. ولذلك فقد خدمت علم النفس أجل خدمة لأنها تساعد على التحليل النفسي وكشف هوية المرضى . فالمعذب والمصاب بالصدمات العصبية يبكي لسماع الانغام المحزنة فيتخلص من ضغطها عليه ، وذوو النفوس الشريرة تستهويهم الموسيقى الهادئة ، وأصحاب الافكار العميقة تستهويهم الموسيقى الكلاسيكية ، وهكذا . والعناية بأمر الموسيقى في علاج الامراض قائمة على أشدها في ألمانيا وأمريكا حتى أن جامعة برلين منحت دكتوراه الشرف إلى المغني الفنان ماكس ريجر الذي أثبت أن المعالجة بالموسيقى أضحت نتائجها الايجابية حقيقة لا خيالاً .

ومهما يكن الأمر فما لا شك فيه أن الموسيقى وسيلة للترفيه عن المحزون البائس الذي فدحته نائبات الزمان ، وبرحت به عوادي الايام ، حتى إذا جلس إلى مغنٍ أو موسيقي شعر بأن يد السرور تمتد إلى أعماق نفسه فتبدلها بالايحاش إيناساً وبالانقباض انشراحاً . وطبيب يأسو كلوم المرضى ويخفف من آلامهم ، مرَّ هولمز العلامة المشهور مرة بين قبور الموتى بناحية (سانت أوبرن) فوجد على رخامة ضريح عبارة عرف منها أن نفس الراقدة تحت هذا الضريح كانت تحب الموسيقى والمرح والاخلاق الكريمة فاستخفه الطرب وصفق بيديه وأردف قائلاً : « كم يمكن أن يصنع من الخير ، وفي الجماعة إذا كان قلب الانسان فرحاً مسروراً ، وكم تلطف الموسيقى ما بالعيش من مرارة ، وكم تزيل من صعوبات وتحل من معضلات في طريق الحياة الشائك » . ومخدر يلامس أعصاب الأرق بلطف ورقة فينام لدى سماعها كما ينام الطفل على هدهدة أمه وهو في المهد ، حمل أحد الاطباء صندوقه الموسيقي إلى المستشفى الذي يطبب فيه وما كان أعظم اغتباطه حين رأى أن عزف قطعة إلى ثلاث قطع يحمل المريض المؤرق إلى النوم . وخطيب بليغ ينفخ في الجندي روح التضحية فيخوض معمعان القتال غير وجل

ولا هياب ، قال مؤرخ ألماني : « إن عزف المارسيليز في الحرب أثار في نفس الجنود الفرنسيين حماسة وشجاعة ، وكانت سبباً في قتل خمسين ألف ألماني على حد ما قال بروس الرحالة من أن الناي الحبشي إذا عزف به في ساحات الوغى كان باعثاً على تحميس الجنود الاحباش إلى حد الهوس والجنون » .

غير أنه ينبغي علينا أن نعرف أن الموسيقى التي تصل بنا إلى هذه الغايات الرفيعة هي تلك الموسيقى الراقية التي تصدر عن خلق نبيل وعواطف سامية . أما إذا كانت من النوع المبتذل الرخيص فسوف يكون أثرها عكسي مؤلم . ولما كانت الاغاني والاناشيد هي أكثر أنواع الموسيقى شيوعاً في سواد الناس وجب علينا حتى تحدث الأثر الطيب المطلوب في نفوسهم أن تكون نبيلة المعاني رقيقة الاسلوب جميلة اللحن ، ولذا فقد عنت الكنائس وغيرها من دور العبادة منذ القدم بادخال الترانيم والتراتيل الروحية لكي يقوى بها إيمان الشعب ويزداد تمسكه بالمثل العليا عن طريق هو أقرب إلى الايحاء الذاتي منه إلى المنطق الفكري.

٢

من هم الموسيقيون حقاً ؟

لا ريب أن الناس لا يستوون في سماع الموسيقى وإن كان طريقهم في السماع واحداً وهو حاسة السمع ، ذلك لأن الاحساس بالموسيقى لا يقف عند تأثر الأذن بوقع الاصوات فيها وإنما يتوقف على إحساس المرء وشعوره . فلو اتفق الناس في هذا كما اتفقوا في الكيفية التي يستقبلون بها الاصوات لكان أثر الموسيقى فيهم واحداً وإذن فالتأثر بالموسيقى يخضع لأمرين : أحدهما يمكن تفسيره وذلك هو المنطق الصحيح الذي يتوافر دائماً في الموسيقى الصحيحة ، إذ الخطأ في الموسيقى خطـــأ في المنطق . وثانيهما لا يمكن تفسيره وهو المتعلق بالشعور والاحساس والمحرك لقوى النفس المختلفة من سرور وحزن وخوف وغير ذلك مما لا يمكن تحديده من أسرار النفس ، لأن الموسيقى تتصل بالعقل كما تتصل بالقوة المخيلة ، وهذا هو سر شعور المرء بمختلف الاحاسيس التي تنزع الى ذكرياته القديمة، هذ الذكريات التي هي أكسير الفنون الجميلة جميعها وهي التي تسبغ علينا المتعة الحلوة حينما تنتقل الينا من الفنان عن طريق فنه الذي اعتمد عليه في التعبير . فكلما كانت هذه الذكريات المثارة حلوة سعيدة كلما كان حب الانسان وتمتعه باسترجاعها أكثر ، وعلى العكس إذا ما كانت ثقيلة محزنة ، وهذا هو سبب حب امرئ هذه القطعة الموسيقية وكرهه تلك . ولقد أدرك بعض

حكماء اليونان منذ القدم هذه الحقيقة ، فوصف أفلاطون الموسيقى في جمهوريته بقوله : « إنها التعبير الشريف للعواطف : الأنفة والسرور والحزن والشك وغير ذلك ، وهي واسطة اتصال تلك العواطف بعضها ببعض إتصالاً لا نهاية له » .

لذلك كان العامل الثاني هو سر الفنون الجميلة على الاطلاق والموسيقى بوجه أخص ، إذ لو أمكننا إدراك كنهه ومدى ما تتركه فينا قطعة معينة من الشعور بالألم وأخرى من الشعور بالسرور لقضي الأمر وتعين طريق التأليف وحصر في قواعد موضوعية ، وتلاشت موهبة الابداع التي هي السمة الخاصة بالفنون والتي لا يحدها شيء ولا يقف في طريقها شيء . وإذن لا يكفي الفنان أن يتمشى مع القواعد الصحيحة للنظريات الموسيقية حتى تكون ألحانه طيبة أخاذة إذا هو لم يراع ما يتطلبه الشعور الانساني من دقة الذوق الفني الذي يتسرب إلى كل قلب من قلوب البشرية التي تشمل عديداً من الاجناس . وهذا هو سر كل انتاج فني يعمر طويلاً وتتعاقب عليه السنون وهو لا يزال فتياً يسعد سامعه في كل عصر لأنه انتاج صحيح قيم يناسب جميع المقاييس البشرية ، ويتغلغل في أعماق فؤادها فتنطق به كل شفة ويهتز له كل قلب . وقد يسبق هذا الانتاج القيم عصره فيخطىء الناس في الحكم عليه ، ثم تأتي الايام المواتية التي تحمل معها أذواقاً أرفع وادراكاً أدق فينصف ويوضع في المكان المخصص له من سدة الخلود . وهذا شومان حارب معاصروه مؤلفاته السيمفونية وكذلك فاجنر فقد وصفه الناس بالجهل الموسيقي وكذلك شتراوس جرده قومه من الاستعداد الموسيقي حتى إذا دارت الايام دورتها بلغوا القمة وعاشوا من جديد وهم أموات .

وقد يتساءل بعض الناس عند سماعهم القطع الموسيقية سيما الوصفية منها ماذا يجب أن نفكر فيه عند سماع الموسيقى ؟ والجواب أن لا يفكر الانسان في شيء بل يهب نفسه بكل ما فيها من شعور وعاطفة للموسيقى وليترك زمامه لها لتقوده

في ملكوتها دون تصنع ، وحينئذ يلمس معجزة الموسيقى التي وإن تكلمت للجميع بلسان واحد فانها تسر لكل منهم سراً خاصاً يختلف نفوذه باختلاف الظروف التي يسمعها فيها، والحالة النفسية التي تسيطر عليه عند سماعها، فهي تشاطر الانسان كل عواطفه وتتلون معه وفاق حالاته النفسية . وفي ذلك يقول الفيلسوف نيتشه: « عشاق الموسيقى يتمتعون حتى بالآلام » . وإذا أدرك الموسيقيون كل هـــذا أدركوا أي رسالة يحملون لمجتمعهم ، وأي واجب عليهم أن يقوموا به باخلاص ليكونوا موسيقيين حقاً . إن كبار الموسيقين ورجال الفن على العموم يميلون إلى السمو الاخلاقي واحترام الفضيلة لأن القاعدة التي قررناها من قبل أن الموسيقى والفن يطهران النفس لأن نظم الفن تعتمد على وحي الطبيعة والمشاعر ونظمها تشابه نظم الكون . لذا كان إتصال الفنان بخالق تلك القوى الكونية عميق ، واننا نرى في ثنايا نظام الكون الذي وضعه الخالق علاوة على السمو الروحي والجمال الملهم كمالاً أدبياً ودوافع خلقية، فمن أرقى أنواع الحيوان لأدناها نرى المبادئ الاخلاقية والنظم الاجتماعية تتحكم فيها . وهناك التأثير الموسيقي وهو الباعث للكمال الأدبي في الانسان وإنا لنشعر بهذا التأثير فنرى الاعصاب تهتز مع الانغام ، والخيال يذوب مع الالحان فتنعتق الروح من مادتها وتهيم في عالم ملؤه الاستقامة والصفاء . ولولا تهذيب الغرائز وتلطيف نزعات الشر في الانسان عن طريق الموسيقى وسواها لعاشت الانسانية في جو محموم ، وهذا هو سر سيطرة المثل العليا في الامم المتدينة أو الامم التي سمت فيها اتجاهات الفنون .

وعلى ذلك فهؤلاء الموسيقيون الذين يسيئون للأخلاق الفاضلة بظنهم أن صفات العبقرية في الفنان أن يعيش عيشة بوهيمية فيتكلفون تلك الحياة الفوضوية المتخطية لحدود الشرائع والاخلاق والعرف وينغمسون إلى آذانهم في الملذات والشهوات ، هؤلاء قد ضلوا طريق الخلود الذي يبحثون عنه ، وعاشوا في ظلام

دامس . وكانت شهرتهم في الشيء الحقير الذي أخذوا به لا بالفن الذي أساءوا اليه لأن سلوكهم يناقض الاساس الذي بني عليه الفن وهو تهذيب الطباع والتسامي عن الترهات، والضدان لا يجتمعان .

يقول سرفانتس : (حيث توجد الموسيقى تمتنع الشرور) وقد يكون من أندر ما جلا عنه العلم ما نشره أحد علماء الكيمياء ببلاد النرويج من أن جراثيم الفساد لا تطيق سماع الموسيقى ، وبرهن على ذلك بأن وضع لحماً طازجاً مفروماً في ست علب من الصفيح محكمة الغلق ثم حفظها في درجة حرارة واحدة وأخذ يعزف الموسيقى أمام ثلاث منها مدى أربعة أيام في كل يوم نصف ساعة ثم فتحها جميعها بعد هذه الايام فرأى اللحم المحفوظ في العلب (الموسيقية) لا يزال طازجاً بينما تسرب الفساد إلى العلب الاخرى . فاذا كانت الموسيقى تصل في نفاذ نبلها إلى الاجسام الميتة فتجعلها في معزل عن الفساد ، فحري بها أن تصل إلى الانسان المفكر الحساس فتصبغه بخيرها العميم وتحرك فيه أعمق العواطف والفضائل لتأثيرها المباشر في الروح الانسانية والعقل الباطن ، ويصاحب سماعها مشاعر واحساسات تفيض على نفس سامعها شاعرية قد تلهب خياله بصورة ظاهرة للعوالم الروحية الطائفة فيما وراء المحسوس . ولذا يتمنى الانسان وخاصة ذو النفس الشعرية دوام التمتع بسماع نغماتها لأنها ترجع في نفسه مختلف المشاعر والعواطف ، هذه العواطف التي أهمها الألم ، وهو تلك العاطفة التي تجعل الفرد إنسانياً بمعنى الكلمة . فبشعور الألم يعطف على البشر ويتألم لألمهم وينتابه القلق النفساني فيصرخ من ألمه ولكن صرخاته قد تتحول إلى أنغام الموسيقى وأبيات الشعر وسطور النثر ودستور المبادىء الانسانية القويمة ، والموسيقى بأنغامها المؤثرة تحرك فينا تلك العاطفة وتقتل كل تكلف ممقوت تمليه حياة الانانية في نفوس الافراد ، والألم من العواطف التي تؤثر في ذوي النفوس الشعرية والقلوب

الرقيقة فيحزنون لحال البؤساء ، ويحدث في عقلهم الباطن مستودع العواطف والذكريات حالة مستمرة تطغى عليهم في كل مناسبة يستطيعون أن يؤدوا فيها خدمة لهم ، وتحمل اليهم الموسيقى تلك الذكريات فيهبط عليهم وحيها فلا ينسون قلوبهم في حال من الاحوال . والفنان لوقوعه تحت تأثير هذه العاطفة يؤدي بدون أن يشعر أجل الخدمات لبني قومه بتعزية بؤسائهم تارة ، وإثارة العاطفة الانسانية في كبرائهم تاره أخرى. وبشعور الحب وهو تلك العاطفة السامية يخفق قلب المؤمن والمتصوف والانساني الهائم بحب الانسانية والفنان المتيم بفنه والعالم الشغوف بعلمه ، فكل هؤلاء ثروة في الامة تشكل عناصر الخير والانتاج والرقي والابداع فيها . والحب هو عاطفة تخلق روح الاجتماع وتوحي بالأمن والسلام والتآلف وهو صفة ظاهرة من صفات الكون اللانهائي متغلغلة في أعماقه ، والحب في روحانيته خلة من خلال الصوفية التي يرى فيها الصوفي في صورة من يحب صورة الله المالئة للكون ، فيعشق إما جمالها الذي هو قطعة من الجمال الالهي أو أخلاقها أو صفاتها وهي من صفات الله ، أو روحها وهي قوة من قوى الله غير المحدودة ، ولذا كان الحب الروحي (الرومانتيكي) في معظم أحواله وليد تلك النظرة الخالصة المضطرمة وهو الذي وهب الفن الكلاسيكي العظمة والخلود .

فالموسيقي الحق لا يحمل في قلبه غير الحب الخالص يهبه لفنه وللانسانية والمجتمع فهو يبعث في ألحانه الاهتزازات الظاهرة التي ترتفع بالارواح إلى السماء وتفعل في القلوب ما تفعله الصلاة فيها من تسامٍ وتعفف عن الرذائل والشهوات أما إذا كان حبه مادياً فسوف يكون عبداً لشهواته وغرائزه . وسيصدر في كل ما ينتج عن هذا الجانب المظلم من حياة النفس . وبشعور الفرح يشعر الانسان بالسعادة شعور المؤمن بالله ، الزاهد في الملذات الدنيوية المادية ، الغير مكترث

بمتناقضات الحياة وما فيها من مغريات ويتحسس الجمال في وجود الله الرحب ليضع يده على ذلك النبع الذي يفيض منه الفن الالهي على الكون في كل نواحيه بدون أن يخضع لمقاييس ثابتة يقيده بها الانسان ، وإذا كان هذا النبع لا ينضب فان باب المثل الأعلى سيظل مفتوحاً ليطلب المزيد من الابداع الفني .

٣

من المهد الى اللحد

لقد رافقت الموسيقى الانسان في جميع مراحل حياته وستظل ترافقه إلى الابد مهما اختلفت ظروفه ومعتقداته وبيئته ، فاذا ولد استقبلوه بأنغام الفرح ، وإذا أعرس عزفت له الموسيقى أطرب الالحان ، وإذا مات تبعته أناتها الحزينة إلى القبر ، إنها تسحر الالباب وتتلاعب بالعواطف كيفما تشاء ، ولهذا اشتركت مع أقوى انفعالات النفس ، فعلى مرح أنغامها ترقص القلوب في الافراح ، وعلى إيحائها الحزين تسيل الدموع في المآتم ، وعلى هدهدتها يرقد الاطفال في المضاجع ، وعلى حنانها تخشع الافئدة في الصلاة ، وعلى أنغامها المثيرة تلعب الشياطين بقلوب الطائشين العابثين ، وعلى نداء أبواقها وقرع طبولها تتأهب الجنود المعارك ، حتى المساجد والمآذن لم تخل من أنغامها المبتهلة التي تسترق السمع وتأسر الجوارح ، وكذا الكنائس والبيع تنبعث منها ترانيمها وتراتيلها مع كل صلاة .

وكلما قربت الموسيقى من موضع الاحساس منا والادراك من أحلامنا وأثارت فيها الهواجس هزت النفوس وفعلت فيها ما تفعله الصهباء بالألباب لأنها لطائف تلوح في الخاطر لا تسعها العبارة تلقي إلى القلب فيجيش بها وتفيض منه فينقلها الصوت فيدركها الحس الماثل لمنبعها وهو الوجدان ، فتخرج من قلب معبر متأثر

لتدخل في قلب سامع مؤثر عليه . ولذلك كانت لغة العواطف بين سائر أجناس البشر . واختلاف الموسيقى والاغاني وما تفضله كل أمة من ألوانها خير حكم على طبائع شعبها ومدى ما يتمتع به من معنويات ضعيفة أو قيمة وذوق منحرف أو سديد . بل لقد رأى فيها الفيلسوف الالماني نيتشه وسيلة من وسائل النهوض بالشعب ودفعه عن طريقها الى التسامي والبحث وراء الكمال، فكتب في مذكراته : « ما صادفت حتى اليوم رجلاً أتى بمثلٍ أعلى جديد ، غير أن الموسيقى الالمانية فتحت مجالاً لآمالي وأولتني الاعتقاد بأنهـا ستوحد بين القوى ، وإن نظرة واحدة تكفي المتأمل ليرى أن كل شيء يتداعى فيجب أن يعمل الهادمون بطريقة تدع للاقوياء مجالاً لاقامة الحياة على شكل جديد » . وقـد عرف مارتن لوثر اللاهوتي المشهور قيمة الموسيقى في تهذيب الاخلاق ومساندة العقيدة فقال على رؤوس الاشهاد : « إني أفسح بكل سرور للموسيقى بعد علم اللاهوت المكان اللائق بها » .

إنه لما يدعو للأسف الشديد أن نحط من قيمة الموسيقى ونذهل عن المقاصد السامية التي يمكن أن نتوصل اليها عن طريقها فنجعلها أداة لهو رخيص قاتل للوقت مثير للغرائز أو مبعثاً لنواح مردد مضعف للهمة ماسخ للرجولة فحسب ، وقد أودع الله سبحانه سحرها في الطبيعة من قبل ومن بعـد للتسبيح بحمده والالتفات لقدرته ، فتسمع أنى ذهبت نشيدها المتصاعد من فجاج الارض الدائر في اهتزازات الأثير ، من الطير في وكناتها ، والامواج المتلاطمة على الجلامد ، والسواقي الجارية في الوهاد ، والغابات الممتدة في منفسحات الارض ، وفي كل مكان تصعد ألحانها في الفضاء ، مختلفة الاصوات متباينة النغمات .

وحسبنا ما أنشأه مبدع الكائنات في هـذا الوجود العجيب من تناسب في المسموع كالسلم الموسيقي المؤلف عادة من سبع نغمات تتوالى من القرار إلى

الجواب ، ثم جعل الاثير رسول خواطر الموسيقي ومستودع مشاعره ، حتى إذا وضع أنامله الصغيرة على ثقوب النـــاي انطلقت في العالم أصوات متجانسة متناسبة متتابعة ، تفرح ثم تحزن ، وتوقظ ثم تنيم كما يشاء هو للناس . وقد ميز بهـــا الخالق بعض أنبيائه فكانت من جملة معجزاته كما حصل لداود عليه السلام .

ومما روي أن النبي اليشع عليه السلام لما دعاه ملوك إسرائيل الحلفاء ويهوذا وايدوم ليتخلصوا من مخاطر الحرب الناشبة بينهم وبين ميشا ، طلب منهم أن يأتوا له بموسيقي ليعزف أمامه على آلته الموسيقية استحضاراً لروح الالهـــام النبوي ، وقد شوهد ذلك جلياً على هيئته وتصرفه حتى توصل إلى منع الحرب . ولعل أظهر الأدلة على ما للموسيقى من أثر في نفوس النـاس ما امتازت به آيات القرآن الكريم من توازن لطيف وانسجام بديع وتقسيم رائع بين آياته وألفـاظ هذه الآيات بالنسبة لبعضها مما جعله بالاضافة لمعانيه السامية ومراميه النبيله غاية الغـايات في الفصاحة والطلاوة والاعجـــاز ، وجعل له نفوذاً على السرائر لا يعـادله أي نفوذ آخر ، فكان مجرد سماع شيء منه من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم كاف لضمان نفوذه الآسر على أشد القلوب قسوة وعنـاداً . ولكي يستكمل هذا الكتاب العظيم عناصر التأثير وقوة الايحاء أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بترتيله : (يا أيهـا المزمل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو أنقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا) وأمر عليه السلام أتباعه بذلك أيضاً فقال : (حسّنوا القرآن بأصواتكم فان الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً) . وكان داود عليه السلام يقرأ مزاميره بالالحان ، حتى أن بعض الطيور كانت تقع وتموت من شـدة الطرب لأنه كان حسن الصوت .

وكذلك كانت أصوات جميع الانبياء كما أخبر محمد عليه السلام بقوله : (ما بعث الله نبياً إلا حسن الصوت) . ونحن بعد هذا لا يسعنا إلا أن نكون مع كارليل الفيلسوف الانكليزي في قوله : (قد قدرت الامم العظيمة الغنـــاء والموسيقى قدرهما باعتبارهما أعلى مركبة للعبادة والنبوة وسائر ما يكون سماوياً في نفوسهم) .

٤

سحر عجيب لا يقاوم

إن مغناطيسية الموسيقى الجاذبه وفعاليتها الواهبة لم تقتصر في تأثيرهـا على الانسان فحسب بل تعدته إلى الحيوان والنبات خلافاً لكل ما عرف البشر من فنون ، وذلك لأن سحرهـا منبعث من صميم الكون الذي أبدعه الخالق فأتقن صنعه ، فلكل كائن في هذا الوجود أثر في منشئها . فثغاء الضأن ، وهديل الحمام ، وتقنقة الضفادع ، وحفيف الورق ، وخرير الماء ، وزقزقة العصفور ، وأغاريد البلبل ، كل ذلك موسيقى لهـــا وقعها ولها أثرها وامتيازها ولها مشاركتها في تكوين ذلك اللحن الموسيقي الخالد الذي ينتظم سائر الكون . ثم قدرتها الشاملة لا تفوقها قدرة مخلوق ، فهي تتلاعب بالنفوس كما تشاء ، فمن مسرة إلى حزن ، ومن هوس إلى سكينة ، ومن هدوء إلى ضجة ، ومن تهييج إلى تسكين لأنهـا مستودع العواطف ومقر الشواعر ، فقد تلقفتها الشعوب وتنافست بهـا الامم ، من مجاهل افريقيا إلى مشارق الغرب ، وتناقلتها الاجيال من أعماق التاريخ إلى عصرنا الحاضر ، فنقشها المصريون القدامى على راسخـات آثارهم ، واليونانيون سحروا بموسيقى أفلاطون الذي استطاع أن يلقي الكرى في عيون سامعية حتى إذا ما استغرقوا في نومهم أعادهم ايقاظاً بنبرات من أنامله وهم لا يشعرون . وجاء بعده أرسطو وكان من المهارة بحيث فرض بعزفه النوم على كل من حضر مجلسه

ولكنه عجز عن إفاقته من نومه كما فعل أفلاطون فأقر بفضل هـذا وعلو شأنه . والاعراب روضوا بأنغامها ضاريات السباع .

ومن الثابت الذي لا جدل فيه أن الجمال تنشط للسير عند سماعها الحداء وتنسى أحمالها الثقيلة ، وتستقصر بسبب سماعها الموسيقى المسافات الطويلة ، فتراها إذا طالت عليها البوادي واعتراها الاعياء تحت الاحمال تمد أعناقها وتصغي للحادي ناصبة آذانها ناسية تعبها ، وربما تتلف من شدة السير وثقل الحمل ، وهي لا تشعر لاستغراقها في استيعاب الالحان . وقـد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينوري قال كنت في البادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب ، فأضافني رجل منهم وأدخلني خباءه ، فرأيت في الخباء عبداً أسود مقيداً بقيد ، ورأيت جمالاً قد ماتت بين يدي البيت ، وقد بقي منهـا جمل واحد ناحل ذابل كأنه ينزع روحه ، فقال لي الغلام أنت ضيف ولك حق فتشفع فيَّ إلى مولاي فانه مكرم لضيفه فـلا يرد شفاعتك في هـذا القدر فعساه يحل القيد عني . قال فلما أحضروا الطعام امتنعت وقلت لا آكل ما لم أشفع في هـذا العبد ، فقال إن هذا العبد قد أفقرني وأهلك جميع مالي ، فقلت ماذا فعل ؟ فقال إن له صوتاً طيبـاً وإني كنت أعيش من ظهور هذه الجمـال ، فحملها أحمالاً ثقالاً وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة من طيب نغمته ، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد ، ولكن أنت ضيفي فلكرامتك قد وهبته لك . قال فأحببت أن أسمع صوته ، فلمـا أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقي الماء من بئر هناك ، فلما رفع صوته هـام ذلك الجمل وقطع حباله ومضيت أنا على وجهي ، فمـا أظن أني سمعت صوتاً أطيب منه . والغنم تصيخ سمعهـا للراعي وتتجمع حوله لتسمع صوت شبابته وتغفل عن الأكل . والفرد يقهقه ويهتز طرباً إذا سمع لحناً من الالحان وقد تبعث به النشوة إلى ممارسة الرقص ، وهـذه الافعى تنساب من وكرها وتطل على العازف وإن

كانت سائرة في طريقها وقفت لتتملى من ألحانه ، وإذا استخفها الطرب هزت رأسها يميناً وشمالاً كما يفعل بعض الناس حين سماعهم الصوت الجميل لا لأنها تفكر في تفهم الموسيقى بل لأنها تتأثر بها بحكم سماع الاصوات والتأثر بالايقاع . والكلب يسايرها بنباح هادئ سرعان ما يرتفع محاكياً درجة الصوت الذي يسمعه . والطير قد يبلغ به التأثر بالاصوات إلى أن يطير إلى مصدر الصوت ويحط بجانبه وقد نسي كل ما يمكن أن يحل به من أذى الانسان ، ويبلغ التأثر بالموسيقى عند الخيل درجة عالية حتى ليمكنها أن تميز صاحبها بمجرد سماع صوته ، كما أن من العوامل القوية في استدرار لبن الجاموس والبقر تسليط الموسيقى عليها واسماعها مختلف النغمات . وقد ثبت لبعض علماء اليابان أن هناك أصواتاً خاصة تجتذب السمك وتساعد على صيده بكميات هائلة ، وأجروا تجربتهم بتسجيل هذه الاصوات على اسطوانات الجراموفون وإدارتها ضمن جهاز خاص يمكن وضعه في الماء بدون أن يتسرب اليه فنجحت التجربة نجاحاً باهراً .

حتى الوحوش المفترسة تسل الالحان العجيبة منها شراستها بدون أن تشعر فتغفل عن غريزتها وتشغل عن فريستها بسماع الموسيقى ، فالاغريق مثلاً يروون قصة (أورفيوس) الذي سحر الاسد بموسيقى قيثارته حتى نسي الاسد شراسته وجثا عند قدمه إلى جانب الحمل . وقصة أفلاطون حين عزف على عوده في مرج من المروج وقد جثم على بساطه السندسي المزدهر الاسد والنمر والوعل والظبي والارنب البري كل بجانب الآخر في وئام وسلام . ولماذا نذهب لهاتين الاسطورتين ولدينا قصة حقيقية نشرتها بعض الصحف ، وذلك أن قسيساً كان له ولد صغير في سن الرابعة ، وكان عند بعض جيرانه أسد مقيد بالسلاسل ، وكان من أشرس السباع ، فدنا الولد منه على غفلة من أهله حتى صار عند براثنه فخفقت لذلك قلوب الناظرين وجمدت عيونهم ، ولم يجسر أحد منهم على انقاذه ،

ورأت ذلك فتاة كانت ترقب الحادثة من غرفة مشرفة على موضع الاسد فأسرعت وأخذت توقع على آلة موسيقية لحناً يسمى (ملك الآجام) حتى سر الاسد سروراً ذهل معه عن فريسته ، والتفت إلى جهة الصوت وهو مستغرق في الاصغاء ، وإذ ذاك عاد الولد مطمئناً بدون خوف ، ولكنه ما بلغ البيت وسمع بكاء أهله ولغط الناظرين حتى صرخ وانخرط في البكاء ، وأغرب من هذا كله أن تحدثنا الاساطير أن ألحاناً موسيقية هزت أعطاف أشجار باسقة على جوانب التلال حتى أنها اجتثت جذورها وطارت إلى الصوت الساحر . وتحدثنا الحقيقة أن فصيلة من الازهار تتفتح عند سماع الموسيقى ، وأخرى تطرب وترمي بأوراقها على الارض فهل بعد سحر الموسيقى من سحر ؟

يقول شكسبير : « الرجل الذي لا تكمن فيه الموسيقى ولا تحركه النغمات الحلوة رجل كز خؤون حركات نفسه مظلمة كالليل وشهواته سوداء كالارض ومثل هذا الرجل لا يوثق به » . إن الفن الصافي الرفيع لا ينبع إلا من نفس صافية نبيلة ولا يأتي دائماً إلا بكل خير ، كالكلمة الطيبة التي تشبه الشجرة الطيبة الموصوفة في القرآن الكريم ، والتي أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها . ولا أدل على ذلك مما رواه الامام الغزالي في احيائه عن ابن الدراج انه قال كنت أنا وابن الغوطي مارين على دجلة بين البصرة والابلة فاذا بقصر حسن له منظرة وعليه رجل بين يديه جارية تغني وتقول :

كل يوم تتلون غير هذا بك أحسن

فاذا بشاب حسن تحت المنظرة وبيده ركوة وعليه مرقعة يستمع ، فقال يا جارية بالله وبحياة مولاك إلا أعدت عليّ هذا البيت . فأعادته فكان الشاب يقول : هذا والله تلوني مع الحق في حالي فشهق شهقة ومات ، قال فقلنا قد استقبلنا فرض فوقفنا . فقال صاحب القصر للجارية أنت حرة لوجه الله تعالى . قال ثم

أن أهل البصرة خرجوا فصلوا عليه ، فلما فرغوا من دفنه قال صاحب القصر أشهدكم أن كل شيء لي في سبيل الله، وكل جواري أحرار، وهذا القصر للسبيل. قال ثم رمى بثيابه واتزر بإزار وارتدى بآخر ومر على وجهه والناس ينظرون اليه حتى غاب عنهم وهم يبكون فلم يسمع له بعد خبر. والمقصود أن هذا الشخص كان مستغرق الوقت بحاله مع الله تعالى ومعرفة عجزه عن الثبوت على حسن الأدب في المعاملة وتأسفه على تقلب قلبه وميله عن سنن الحق . فلما قرع سمعه ما يوافق حاله سمع من الله تعالى كأنه يخاطبه ويقول له :

كل يوم تتلون غير هذا بك أحسن

ولعل الذي يقرأ هذه القصة لا يستغرب وقوعها بعد أن أثبتنا في غير هذا الموضع ما للموسيقى من سلطان وسحر على نفس الانسان والحيوان والنبات . وهذا هو جورج أبيض شيخ المسرح في مصر على حين وافاه المشيب يستمع ذات ليلة إلى كوكب الشرق أم كلثوم وهي تترنم بنهج البردة وتتلاعب نغماتها بقلوب من أحاط بها من المستمعين فيلامس الغناء المظلم قلبه ويدخل سمو الشعر إلى شغافه فيهزه كما لو كان راقداً من قبل فيصحو وقد ملأه الايمان بعظمة الرسول العربي وما أنزل عليه فيعلن هو وبناته انحيازهم للاسلام كما نشرت بعض الصحف منذ أمد قريب. وهناك غير جورج أبيض كثيرون حولت الموسيقى مجرى حياتهم فانقلبوا على أنفسهم السادرة وساروا في الطريق السوي . فمن ذا الذي يستطيع أن يصف بالالفاظ المحدودة مبلغ تأثير الموسيقى في نفس كل حي ، فلندعها لغزاً ولنستمتع بها ونغذ أرواحنا بكل ما سما منها وراق .

٥

ألحان في الطقوس الدينية

رأينا في غير هذا الموضع أن جميع الاديان قد أدخلت الموسيقى في بعض طقوسها لتستعين بها في التأثير الروحي على نفوس الناس لتستسيغ العبادة ولتهيأ للاتصال بخالق الكون وهي نبيلة العواطف صافية المنابع ، لذلك لم يحرمها دين من الاديان ، بل لقد رأينا داود عليه السلام يستعين بها في السيطرة على شرة النفوس وتقريبها من البارئ العظيم . وقد استعير نوع من الترتيل في المساجد والكنائس وبيع اليهود لهذه الاسباب . وقد رأينا كيف دخلت الموسيقى أول مظهر من مظاهر الدعوة الجاهرة بالاذعان لله والدعوة لعبادته ، وذلك هو الأذان وقد اختير له بلال لأنه كان أندى الصحابة صوتاً وقتئذ . ولما كان للصوت الطيب أثره في النفس فقد شرط الغزالي في كتاب الوجيز في صفة المؤذن ما يأتي : « وليكن المؤذن صيتاً حسن الصوت ليكون أرق لسامعيه » استناداً إلى قول الرسول عليه السلام لعبد الله بن زيد بعد أن فرغ من سرد الالفاظ التي حفظها من الحلم الذي رآه « قم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فانه أندى صوتاً منك ». ولقد سمع عمر بن عبد العزيز رجلاً يؤذن بصوت أجش فقال له : أذن أذاناً سمحاً وإلا اعتزلنا .

فهل فطنت دائرة الاوقاف الاسلامية لهذه الناحية الهامة من الدعوة للدين

لا التنفير منه فأجرت اختباراً لأصوات المؤذنين كما تختبر الاذاعة أصوات المغنين بعد أن تنصفهم وترفع قليلاً من أجرهم الشهري حتى لا يقع مع أحدنا ما وقع مع ذلك الحمال المصري الذي استأجر سائح انكليزي حماره ليركبه في طريقه لمشاهدة الاهرام ، وبينما هو في اتجاهه إذ سمع صوتاً رخيماً يرن بألفاظ الأذان الجميلة فأثر في نفسه الصوت الحسن ، وقال للحمّال ما هذا ؟ قال له : أذان يدعو المسلمين للصلاة فأعجب بذلك واستحسن الاسلام وطريقته في الدعوة للعبادة ، وسر الحمال بهذا وطمع في اسلام السائح . وما مضت سوى فترة قصيرة حتى طرق سمع الحمال صوت أجش من مؤذن آخر ، فخشي من أن يغير السائح رأيه إذا هو انتبه اليه ، ولذلك صرخ في حماره وحثه على الاسراع وهو يقول : « حا .. حا .. قبل ما يكفر » . ولما للصوت الحسن من أثر في قراءة القرآن ، فاننا نرى أن كثيراً من الناس يقصدون مسجداً معيناً يوم الجمعة أو في أكثر أوقات الصلاة المكتوبة لأن القارئ فيه أو الامام ذو صوت جميل . كما أن تكبيرات العيدين وقول آمين بعد انتهاء الامام من قراءة الفاتحة في الصلاة الجهرية ما هي إلا مظهر من مظاهر الموسيقى تتصاعد من أفواه المصلين بصوت منسق خفيض يوحي بالرهبة والخشوع . ونحن إن بينا أثر الصوت الحسن في هذه المظاهر الدينية التي تعرضنا لها لا نريد أن يفهم منا أننا نوافق على ما أضيف اليها من البدع التي أنكرها كثير من العلماء والتي خرجت عن حد الاعتدال والذوق الفني ، وانقلبت لعكس ما تهدف اليه من تحبيب الناس بشعائر الدين فأبسط المبادئ التي يذكرها حتى عوام الناس « إن كل شيء مهما كان نافعاً إذا زاد عن حده استحال الى نقص وضرر حتى الدواء » .

أما القرآن الكريم فقد رأينا كيف أن الله سبحانه وتعالى دعا إلى ترتيله بقوله مخاطباً نبيه الكريم والخطاب للنبي هو خطاب لأمته في نفس الوقت (ورتل

القرآن ترتيلا) وقال ﷺ (زينوا القرآن بأصواتكم) وقال أيضاً (غنوا بالقرآن ليس منا من لم يغنّ بالقرآن وابكوا فان لم تقدروا على البكاء فتباكوا) . وقد سمع بعض الصحابة عبد الله بن مغفل يقول : (رأيت النبي وهو على ناقته وهي تسير يقرأ سورة الفتح قراءة لينة وهو يرجع) . نعم لقد أمر الشرع بكل هذا بالنسبة للقرآن الكريم ، ولكنه أمر في نفس الوقت بالاعتدال حتى لا يخرج القرآن عن معانيه وعما يقتضيه من خشوع القارئ والسامع حين تلاوته فقال عليه السلام : (اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابين ، وسيجيء قوم من بعدي يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم). ولتحقيق هذا الاعتدال في التلاوة والنأي بالقرآن الكريم عن ترجيع مثل هؤلاء المفتونين وضع علماء المسلمين أحكام التجويد لتطبق على جميع آياته على السواء من ناحية تركيبها اللفظي مداً وغناً وإدغاماً وإظهاراً وإخفاء الخ ... دون تعرض لتصور المعاني واختلاف اللجهات . فالقصد الاول المطلوب مراعاته من القارئ الباس كل معنى لبوسه ، كما يرى الامام الغزالي بقوله : (أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن فان سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهي والمأمور ، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك) . وعلم التجويد ضروري حتى للخطيب والمغني لأنه يسعف في تكوين الاصوات الجيدة أولاً كما يؤثر في صفاء المقاطع وانسجام الكلمات والنطق الحسن ثانياً . ويجب لتجويد النطق أن يجري الحرف في مخرجه بسهولة من غير تكلف . ولكي تعرف مخرج حرف من الحروف عليك أن تسكن ذلك الحرف أو تشدده ، ثم تدخل عليه همزة محركة بأية حركة ثم تصغي اليه فحيث ينقطع الصوت فهو مخرج الحرف ، ومخارج الحروف وصفاتها من خصائص علم التجويد الذي يشبه النوتة الموسيقية تماماً ، وبذلك وضع أساس النوتة الموسيقية

العربية لكن في شكل ديني صرف يتقيد به القراء . ثم يجب بالاضافة إلى ذلك أن يتأثر القارئ بالتلاوة وينفعل معها بدرجة عالية لينتقل تأثره وانفعاله هذان لمن يستمع اليه . وقد عبر الغزالي عن ذلك بقوله : « أن يصير بصفة الآية المتلوة فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يموت . وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح ، وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يطأطئ خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته » . ثم القرآن الكريم أظهر ما تبرز موسيقاه في فواصله ومقاطع آياته . وقد جاء في كتاب الاتقان للسيوطي : « إن مبنى الفواصل على الوقف وقد كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين والحاق النون وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك » . وهذه الموسيقى أيضاً نراها شائعة في كل كلمة من كلمات القرآن الكريم وفي كل جملة من جمله ، فاذا كان المقام مقام إنذار ووعيد مثلاً نرى ألفاظه جزلة متينه داوية كالرعد : (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) وإذا انتقل الى وصف المتقين وجدت الالفاظ رقيقة ناعمة مثلهم (وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية في جنة عالية) . ثم هناك الموسيقى الوصفية التي قلما نجدها في غير القرآن الكريم وهي التي تصور المعنى وتدل على الفكرة من طريق إيحاء النغم وتشابه الصوت الانسجام الذي يكون بين موسيقى اللفظة والمعنى الذي توحي به (فكبكبوا فيها هم والغاوون) لقد اختار لفظة (كبكبوا) لأنها من حيث الحروف تتألف من مقطعين موسيقيين متماثلين متكررين في سرعة وتوالٍ يصوران حركة سقوطهم في النار وهويهم فيها بشكل يجعلنا نتخيل هذا المعنى المقصود من وراء جرس اللفظ بشيء من التصور البالغ والتأثر القوي . وقد استعمل لفظة (الرعب) بدل الخوف في قوله : (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) لأن الراء من الحروف ذات الاصوات الشديدة المتكررة ، والعين من الاصوات الواضحة المجهورة ، والباء

من الاصوات الشديدة مما يجعل هذه اللفظة المركبة من هذه الحروف أنسب لمقام الارهاب والوعيد بخلاف الحروف اللينة المهموسة التي تتألف منها كلمة (الخوف) ومن ذلك ما يلحظ أن القرآن يستعمل في كل موطن من المواطن طائفة خاصة من الحروف المتحدة المخرج كاستعماله حروف الاطباق والقلقلة جميعاً في سورة (ق) « ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب » . و من ذلك أيضاً تردد الحرف الواحد مرات كثيرة في الآية الواحدة حتى يتلاءم نسجها وتتآلف كلماتها كتردد حرف الراء في سورة القمر والنون وهكذا . ومن ذلك أيضاً أن القرآن يرصد لحرف الفاصلة حتى لا يبدو غريباً موحشاً كما في قوله : (يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا) فبتكرار هذا الحرف تتم حلقة موسيقية ذات أساس وجواب على نحو ما هو معروف في السلم الموسيقي . كما أن للقرآن الكريم امارات أخرى تبرز موسيقاه في فواصله ، من ذلك : أ ــ زيادة حرف لا موجب له إلا المحافظة على الموسيقى والانسجام الصوتي (وتظنون بالله الظنونا) . ب ــ حذف ياء المنقوص المعرف (وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) . ج ــ تقديم ما هو متأخر في الزمان (فلله الآخرة والأولى) . د ــ إيثار اعراب اللفظين (قسمة ضيزى) فلم يقل جائرة .

ثم إن ما جاء في فواتح السور من حروف المعجم يرى بعض العلماء أنها رموز صوتية وإشارات موسيقية لأن القرآن نزل ليرتل ويتلى كما كانت الحال في الموسيقى القديمة أيام بساطتها فقد كان يشار إلى ألحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة تقابل (النوتة) في عصرنا الحاضر .

ولقد تسربت الموسيقى إلى التصوف واستعان بها المتصوفون على اضفاء

روح الخشوع على أرواح الذاكرين في حلقاتهم منذ أقام السيد الجيلاني أول حلقة الذكر وبدأت القصائد الصوفية التي تنشد وقتئذ تلحن تلحيناً موسيقياً مؤثراً. وكانت هذه القصائد مدحاً للنبي ﷺ وتنزيهاً للخالق جل شأنه حتى انتشر مذهب الحب الالهي وحلّ محل الخوف من الله فتغزل المتصوفة بالذات العلية في قصائدهم وأدخلوا الموسيقى معها بشكل جدي باستعمالهم بعض آلاتها كالرق والناي.

٦

كيف تنساب الأنغام

يحسب بعض الناس أن صياغة الالحان أمر يسير ، فالمؤلف الموسيقار يكفيه أن يجلس إلى موسيقاه قليلاً فينهال عليه اللحن من تلقاء نفسه وبدون أن يقيده قيد ، مع أن الحقيقه غير ذلك . فالموسيقار كالمصور الذي يخرج من خليط الالوان صوراً جميلة ، وكالشاعر الذي يصوغ من الالفاظ قصائد ممتعة بعد كثير من الجهد والاعتماد على التجارب والالمام بنواحي فنه الذي وهب حياته له . ولما كانت الموسيقى كاللغة والتوقيع كالالقاء ، فأول ما يجب على المؤلف الموسيقي أن يجعل الاجزاء مرتبطة بعضها ببعض ترمي إلى غرض مخصوص هو (الفكرة الاساسية) ولا بد لسلامة هذه الفكرة الموسيقية وبلوغها من اتباع قواعد تميزها وتوضح طرازها ، ومن هذه القواعد الضرورية :

١ — اختيار لحن خاص وضرب خاص واتباعها .

٢ — حسن التصرف في اللحن والضرب والانتقال منها .

٣ — اتباع طراز خاص يميز القطعة عن غيرها .

والتأليف الموسيقي نوعان : مادي ومعنوي ، ولكل تأليف أسلوب خاص . ونحن يهمنا أن نوضح أسلوب التأليف المعنوي وهو الطريق الذي يسلكه المؤلف عند التعبير عن أفكاره ومشاعره ، وهو يشمل العبارات والافكار ومحسنات

كلها أي الصورة اللفظية والصورة الفكرية والصورة الفنية . وأسلوب التأليف المعنوي من أهم الاساليب التي تحتاج إلى خفة الروح ورقة التعبير ودقة التركيب لأن عناصره أنغام الموسيقى ، وهي صورة لما تحسه النفس وتشعربه من مختلف العواطف ، فهو أقرب الاساليب للنفس وأبلغها تأثيراً فيها ، وينقسم إلى قسمين : أولها الأسلوب البسيط ، وثانيها الأسلوب المركب . فالاسلوب البسيط هو التوسل بأبسط الجمل وأسهل العبارات الموسيقية بحيث يستسيغها العامة وغير المثقفين ، ويعمل بهذا الاسلوب في تأليف الموسيقى الشعبية من قطع وصفية أو غنائية (كالطقاطيق) ومقطوعات الرقص وألحان المجموعة (الكورس)والروايات الغنائية الصرفة (الاوپرا) والغنائية غالباً (الاوپريت) و (المارشات) و (الاناشيد) في كثير من الاحيان و (الفرديات) التي تعبر عن معانٍ بسيطة وعواطف عامة ، ولذلك أصبح من الطبيعي أن نحكم بوجوب اتحاد جميع المؤلفين بهذا الاسلوب في تطبيقه ، والتقارب الشديد في كيفية العمل به لأن الاختلاف فيه اختلاف في موضوع جوهري .

أما الاسلوب المركب فنواته الاسلوب البسيط وكساؤه الكماليات الموسيقية التي يتوسل المؤلف باضافتها اليه في العمل على بلوغ أقصى درجات النجاح في التعبير عن معنى عميق وتصوير عاطفة دقيقة أو مركبة . ويعمل بهذا الاسلوب في تأليف الموسيقى العالمية (كالسنفونيات) والتصويريات والوصفيات للمناظر والظواهر الطبيعية والاحاسيس النفسية ، ولذلك فهو قوام الروايات الغنائية التمثيلية بنوعيها : الصرفة (أوپرا) والغالبة (أوپريت) ويدخل في تأليف المفردة أو الفردية (صولو) التي تبالغ في تصوير الرهبة أو الألم أو الجمال أو الذكريات أو الاغراء والفتنة . وبما أن روح هذا الاسلوب منسكب في الاضافات الكمالية التي اعتبرت لذلك أساسياته فلا بد للمؤلفين به أن يختلفوا اختلافاً بيناً في طريقة

تطبيقه لأن الاضافات الكمالية التي يمتاز بها وتكسبه الحياة هي صورة عن نفس مؤلفها . وقل أن يتشابه في الخَلق والخُلق اثنان ، لذلك كان من الميسور أن تعرف مؤلِّف قطعة بأسلوب مركب من غير أن تقرأ اسمه بجانب القطعة بعكس ما إذا كانت مؤلفة بالاسلوب البسيط. ولا شك أنه ليس هناك حكماً على الاسلوب غير الذوق الذي هو الملكة التي يبصر بها الانسان الجيد والردئ وهو مختلف باختلاف الناس وبقدر سلامته وحسن تغذيته يكون قدر صاحبه من النبوغ الفني إذا كان من عداد المؤلفين الموسيقيين .

الفصل السادس

(١) الدنيا موسيقا وشعر

(٢) الأغاني مرآة الشعب

(٣) التأليف الشعري للغناء

(٤) التلحين

(٥) الأداء

١

الدنيا موسيقى وشعر

لقد لازمت الموسيقى الشعر منذ القدم فهما صنوان لا يفترقان ولا يستغني أحدهما عن الآخر ، بل لقد كانا فناً واحداً عند اليونان والمصريين. قال بلوتارخ المؤرخ اليوناني : « إنه لم يكن للأقدمين واسطة لنشر العرفان غير الشعر الملحن . ولقد كان من الميسور لكل شاعر أن يلحن ما يقصده » . فقد كان الشعراء موسيقيين أيضاً كما كان هوميروس . وكانوا يلقبون تارة بالحكماء وتارة بالانبياء وتراجمة الآلهة ، وكانت قصائدهم حكماً ناضجة وعظات رفيعة تدعو للخير والحق . ولقد كانا كذلك أيضاً في القرون الوسطى ، فالشاعر الجاهلي كان موسيقياً بفطرته يلقي قصائده شعراً غنائياً كما كان يفعل الفرسان الرحالة المعروفون بـ (التروبادور) في أوربا ، فقد كانوا شعراء موسيقيين ، ولم تزل هذه الظاهرة قائمة في كثير من البلدان والقبائل حتى اليوم . بل ان من أعلام شعراء العصر الحاضر من يتقن الموسيقى إتقانه للشعر ، ولا ينشد شعره إلا ملحناً غنائياً وهو رابندرا طاغور الفيلسوف الهندي وهو القائل : « كلما قصدت أناشيدي وترنمت بها في هدوء أحسست أن ليس من قدر الشعر أن يبلغ بنفسه الغاية التي ينتهي اليها إذا احتواه اللحن » . فالشعراء والموسيقيون إذن يكملون بعضهم بعضاً في تحقيق الرسالة العامة للفن وإن اقتضت تشعب العلوم والفنون انقسامها قسمين، ولذا قال غلادستون:

« إن الذين يعتبرون الموسيقى بين السخريات في هذا الوجود ويتخذونها آلة يتلهون بها هم في ضلال مبين لما أنها لا تزال تعد من العوامل الفعالة في تنشئة وتنبيه وضبط عقل الانسان بناء على ما تسومع به في جميع العصور منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا ، ولم تكن معرفتها خافية علينا يوم تفنن الناس في مذاهب الحضارة والعمران ، وارتضعوا أفاويق العلم والعرفان ، بل كانت بعكس ذلك أرفع من أن تكون خادمة لا تتخطى مراسم من يلهو بها هزؤاً أو سخرية وأبعد عن الدعابة كل البعد بدليل أن الصلة بينها وبين فن الشعر الشريف موثقة العرى ، إذ أن من المحال أن يكون الانسان شاعراً دون أن يكون موسيقياً ، وما من شعر تم نظمه في المراحل الاولى لهذا العالم إلا وكانت الموسيقي اليد الطولى في صوغه من خالص النضار واحتوائه على لطيف الحس وشريف الوجدان ، فضلاً عن أنها المرشد الامين والسراج الوهاج الذي يضيء النهج الموصل إلى قلب الانسان » .

فهناك إذن صلة وثيقة بين الشعر والموسيقى ، فهو يمدها بالألفاظ والمعاني التي تصلح للتغني والتلحين ، وهي تمده بالوزن الذي هو بمثابة الايقاع واللحن مما يجعله أشد وقعاً وأعذب مخرجاً من النثر ، ثم هما يشتركان معاً في التعبير عن مشاعر الانسان وعواطفه في شتى مظاهر وجدانه البشري . والشعر إلهام روحي وإبداع وتصوير وقيمته تتناسب مع حظه من قوة الخيال والتصور ودقة الحس والذوق ، وهو تعبير موسيقي رفيع عن حقائق الحياة وإظهار لما فيها من حق وخير وجمال. وطريقة الشعر هي طريقة الموسيقى أيضاً وغايته غايتها ، وكما أن للشعر قيوداً تلتقي عندها جميع الاذواق . فللموسيقى كذلك قيود يقف عندها الموسيقيون في كل جنس وكل بلد ، وكما أن هذه القيود إذا تشدد فيها وخضع لها الشعر خضوعاً تاماً تجرد من قوة الابداع ونفحة الالهام ، وكان فاقد التأثير لأنه لا يعدو أن يكون

كلاماً منظوماً ، فكذلك الموسيقى قد تصاغ صياغة مغلولة الاطراف تجعلها أقرب للنظم الموسيقي الذي لا يحرك عاطفة ولا يطرب روحاً .

فكل من الموسيقي والشاعر لا يؤديان رسالة الفن إذا لم يكن كل منها في فنه الذي اختص به معبراً ملهماً مبدعاً ، ولعل أبدع ما يصور الشعر من خلال نظرة الموسيقى اليه ما قاله بيتهوفن الموسيقار العظيم في شعر جيته الشاعر العظيم « ليست عظمة شعر جيته في معناه فحسب ، بل في قوة إيقاعه التي لها سلطان شديد يسوقني سوقاً إلى تلحينها فان شعره يحمل في طياته أسرار الانسجام الموسيقي الذي أبحث عنه » . ولهذه الشهادة قيمتها في التدليل على ما قلناه من أن الموسيقى والشعر فن واحد في طبيعتها وفي غايتها وفي اعتمادهما على الالهام لتحريك الشعور الانساني ، هذا الالهام الذي يهبط على الفنان في فترات متقطعة تسبح بها الروح في المجال البعيد ، ولا سيما عندما يكون الموضوع المطروق جذاباً مستولياً على الشعور بحيث يسلب الاحساس الواعي للفنان إذ كلما استولى الموضوع على العقل سلب منه الشعور ، وكلما استولى على الشعور سلب منه العقل ، ثم إن كلاً من الموسيقى والشعر يشبهان الكائن البشري . فكما أن هذا يرجع في تركيبه إلى جسم وروح ، ولا يتم له الجمال الكامل إلا إذا توفرت في جسمه مطالب الجمال ومقاييسه من حيوية وانسجام وتنسيق في الاعضاء ، وفي روحه السحر والنفوذ والشخصية المعنوية القوية ، فكذلك الموسيقى والشعر لا يتحقق فيها الجمال إلا إذا توفر للمبنى تنسيق التراكيب وحسن اختيار الالفاظ والتأليف بينها ، وللمعنى قوة التأثير والقدرة على الاستهواء ، هذه القدرة المستمدة من وحي الالهام والابداع . ولا بد من تحقق التوازن بين هاتين القوتين : قوة المبنى وقوة المعنى إذا حرص الفنان على بلوغ الذروة في جمال انتاجه . نعم إن الموسيقى والشعر يتفقان في كل هذا ، كما يتفقان أيضاً في خضوع كل منها لطابع معين تفرضه

الظروف المحيطة بالفنان والبيئة التي يعيش فيها مما يميز انتاجه بمظاهر خاصة هي صورة لتلك الظروف والتجارب التي مر بها مما يجعلنا نعتقد خلاف ما يشاع من أن الموسيقى تختلف عن الشعر بكونها لغة دولية عامة يفهمها جميع الناس لأنها لغة العواطف البشرية المشتركة ، وآية ذلك أننا قد نستمتع بالموسيقى الاجنبية إلى حد ما. ولكن هذا الاستمتاع لا يبلغ بنا مهما حاولنا الحد الذي يصل اليه أهلها منه ولو كنا نفهم لغتهم ، كالمستشرق الذي يجيد فهم اللغة العربية إلى حد قد يتفوق فيه على بعض الناشئين عليها ، ومع ذلك فيستحيل عليه أن ينفذ إحساسه إلى تذوق ما فيها من بلاغة واعجاز ، كما يستحيل عليه أن يتذوق موسيقى أهلها كما يتذوقونها هم . لأن الموسيقى والأدب يحمل كل منها في خصائصه مجموعة من المؤثرات والمزايا والمفاهيم التي تنحدر إلى كل شعب من آبائه الاقدمين وتفرضها طبيعة البيئة فتصبغه بصبغة خاصة تميزه عن باقي الشعوب .

فكما أن لكل موسيقي ولكل شاعر بالنسبة إلى أمته أسلوبه الخاص في التعبير يوصله إلى مرتبة من العظمة تتناسب مع ما أوتي من موهبة فنية ومعرفة بأصول فنه وقواعده ، فكذلك لكل أمة بالنسبة للأمم الاخرى أسلوبها الخاص الذي يميزها ويفصح عن امكانياتها وطرق تفكيرها وأسلوب حياتها بصدق . وكل ما تختلف به الموسيقى عن الشعر أن الموسيقى لغة لا حاجة بها إلى الكلام ليترجم عنها ، لأن قوتها الساحرة تكمن في كونها تحمل في ذاتها التعبير عن العواطف من غير أن تقيد بشخص أو ظرف. ولهذا السبب تنفرد الموسيقى عن جميع الفنون — لا الشعر وحده — بكونها تتيح لكل انسان أن يستمتع بها على قدر ثقافته واستعداده ، ووسيلتها لذلك الاصوات التي تتعاقب في تناسب واتساق فتشكل أنغاماً موسيقية تؤدي المعنى الذي يقصده الموسيقي وتدركه الأذن بدون كد الذهن. والموسيقي الموهوب يستطيع بوسائل التعبير الموسيقي من آلات وأصوات وبدون

الاستعانة بلغة ما أن يصور المعاني التي يريد أن يفصح عنها تصويراً تاماً ، فتقوم هذه (الموسيقى الوصفية) مقام الكلمات . والذي يستمع إلى سنفونيات بتهوفن يدرك هذه الحقيقة التي لا تقبل الشك ، وفي هذا يقول فاجنر « سمو الموسيقى التصويرية كائن في التعبير بواسطة الآلات عما لا يمكن التعبير عنه بالكلام » فاذا كان التعبير الموسيقي وحده واصلاً الى هذا الحد من التأثير في نفوس السامعين فكيف يكون مدى هذا الأثر إذا اقترن جمال الموسيقى بابداع الشعر وعملا معاً في اختراق أعماق الانسان ! ومن أجل ذلك كان توفر النغم الحلو في القصيدة الشعرية من أسباب نجاحها ومضاعفة تأثيرها ، ولذلك يقول فاجنر « الشعر الذي لا يغنى لا يستحق أن يكون شعراً » .

ويرى طاغور أن اللحن الجميل للقصيدة بمثابة الروح من الجسم « كلما أخرجت ما أصنعه من أغاني بغير ألحان أشعر أنه يعوزه الروح » على أنه ينبغي أن نعرف بأنه لا ضرورة لأن يجيء معنى الشعر والتعبير الموسيقي في قوتين متعادلتين ، بل قد يظهر أحدهما على الآخر بحسب نوع التعبير الذي يتصديان له ، ففي التراتيل الدينية والقراءات الالقائية والاناشيد المدرسية مثلاً يقتضي الحال ظهور الكلمات ووضوح الشعر ، وأن تكون الموسيقى مجرد عون للشعر على اظهار معناه . وفي الاوبرات تطغى الموسيقى على الشعر حتى تكاد تختفي كلماته وراء الالحان ويكتفى منه بامداد العقل بما يشتغل به من تسلسل الوقائع وكذلك الامر بالنسبة للموشحات .

٢

الأغاني مرآة الشعب

لقد وجد الغناء مع الانسان الاول ، فهو شيء حاكى به أول الامر ما كان يسمعه من أصوات الطير ودمدمات الطبيعة ليدفع عن نفسه الوحشة والخوف ، ثم اتخذه بعد ذلك ظاهرة من ظواهر التدين والتعبد ، ثم أداة للتسلية واللهو ، ثم تطور به الأمر حتى جعله أداة للتثقيف والتهذيب وعلاجاً للجسم والروح ، حتى كانت الموسيقى إحدى الأسس في بناء (جمهورية أفلاطون) ، ولكنه كان يرى عدم الافراط فيها حتى لا تنقلب الرقة التي تبعثها في النفوس إلى ضعف في الابدان والاخلاق ، وكلما كانت أقرب إلى الطبيعة كانت أحسن وقعاً وأعمق أثراً في النفوس وقد جاءت الآلات لتحاكي أصوات الطبيعة وتنسقها وتبرز مراميها . ولقد بلغت الموسيقي الآلية الصامته شأواً بعيداً في البلاد الراقية ، وأصبحت عوناً كبيراً للتربية في توجيه الناشئين . والذي يلاحظ أننا في موسيقانا وغنائنا لا نتجه إلى الاغراض المتعددة التي يتجه اليها الغربيون ، بل نكاد نقتصر فيها على التطريب والغزل وشكوى الغرام ، والذنب في ذلك ذنب المؤلفين والملحنين والمغنين معاً . ولذلك كان ضرر الموسيقى والغناء في بلادنا أكثر من نفعها شأنها في ذلك شأن الخمر ، وقد أدى ابتذالها وقصر استعمالها في إثارة الغرائز الجنسية إلى ما نراه من الانحلال والفساد الخلقي والبعد عن العزة والرجولة والمثل العليا .

والغناء على الخصوص مرآة الأمة فيها تتمثل نزعاتها وتنطبع ميول نفسيتها لأن الاصل فيه هو الشعر ، مهبط الحكمة ومستودع العواطف ومقر الاحاسيس. والمفروض فيه أن يظهر المآثر ، ويسمو بالاخلاق ، يكافح الرذيلة ، ويدعو للاصلاح . وإلا كان ألفاظاً منظومة لا طائل تحتها ولا غناء فيها . وهذا ما عليه شعر الاغاني في (عهد التجديد المزعوم) . فلقد أسرف الشعراء في نظم الاغاني المثيرة للشهوة، المضعفة للرجولة ، النائحة ، الباكية ، التي تجثو بأوزانها وقوافيها على قدمي الحب الفاجر تستجدي وتستخزي وتطلب عطف المحبوب بدون أن تبالي بكرامة الشعر وعزة الموسيقى ، هذه الأغاني تلقى إلى الملحنين فلا يأخذون عليها شيئاً ولا يتبصرون فيها ، بل يعكفون على وضع ألحان لها مثلها أو أشد منها تخنثاً وضعفاً وبعداً عن العزة والرجولة ، ثم يأتي دور المغني الذي يلقيها على الجمهور في تنغيم يؤذي الحس السليم . والجمهور بين هؤلاء جميعاً يتلقى الصدمات ويدركه الانحلال بدون أن يشعر ، ولم يكن الشعر ولا كانت الموسيقى يوماً يدعوان إلى ذلك ، بل كانا معاً من أسرع وسائل التهذيب وأجداها وألصقها بالنفوس . وإذا ما لاحظنا ذلك علمنا أية جناية يجنيها هؤلاء على أمتهم ووطنهم في افسادهم الاذواق وتحريضهم على الميوعة والانحلال الخلقي . ومن الخطأ أن نصدقهم في وضعهم الملامة على الجمهور الذي يدّعون بأنه لا يرضيه إلا هذا فهم يمالئونه ويسترضونه لأن الأصل في الانسان سلامة الفطرة ، والانحراف طارئ وعلى الفنان أن يرفع الجمهور اليه تدريجياً ويرتفع بذوقه وإدراكه للفن ، لا أن ينزل هو إلى مستوى الجمهور ، ويسايره فيما يهوى فيزيده ضلالاً على ضلاله، وفساداً على فساده . فالمفروض أن تكون الفنون من وسائل الاصلاح والتقدم كما أسلفنا لا من وسائل الافساد والتقهقر كما هو حالها اليوم. وعلى الشعراء والملحنين والمغنين جميعاً أن يفهموا هذه الحقيقة قبل أن يستفحل الخطر ويصعب الرجوع للصواب .

ولا نتخطى الواقع إذا قلنا أن الفوضى هي علة العلل في بلادنا وكذا المحسوبيات التي تطمس النشاط وتقضي على المواهب في كل مجال من مجالات النشاط ، ولو كان لدينا هيئة فنية محترمة ذات سلطان تشرف على الموسيقى والغناء فلا تسمح إلا بما كان منها متفقاً مع أهداف الأمة وطموحها وتكوينها الحديث لكفكفنا كثيراً من هذه المفاسد التي تتخبط فيها اليوم . والموسيقى العربية الخالصة بجملتها مشوقة مؤثرة ، والشعب أكثر استساغة لها من هذه الموسيقى الجديدة ـ الممسوخة في كثير من الاحيان ـ فيما لو وجد من يحسن أداءها واشتم فيها التزام القواعد الفنية ، والغايات التهذيبية، ودقة مصاحبة الآلات للغناء ، وحرص الالحان على ابراز المعاني الشعرية ، وحسن توزيع الانغام على الآلات . وليس هنا ما يمنع من أن تكون لدينا إلى جانب الالحان الشعبية السهلة ذات الموضوع التهذيبي ألحان أعمق للطبقة الخاصة من الأمة إلى أن يحين الوقت لتعميم هذه وتقديمها على تلك . ونحن لا نمنع الانتفاع بالموسيقى الغربية ، فالمستقبل بلا ريب للموسيقى التصويرية وموسيقى المسرح والسينما وهذه ضعيفة عندنا ، وإنما الذي ندعو اليه هو أن نحسن اختيار ما يلائم الذوق العربي ثم ندمجه في ألحاننا ونؤديه على طريقتنا ليكون كاملاً مؤدياً للغرض من حيث التأليف والتلحين والأداء وهي العناصر الثلاثة لنهضة الغناء .

٣

التأليف الشعري للغناء

الشعر أحد فروع المعرفة وهو من أدوات التعبير عن النفس والحياة والطبيعة. ولذا كان من الطبيعي أن تتجدد آفاقه وتتلون صوره وينسجم مع موسيقى الطبيعة وموسيقى الانسان ، وموسيقى الحياة المبنية على التكرار والدوام والتسلسل كما يرى (برجسن) . وهذا التكرار هو السر في الايقاع ، إيقاع الحياة ، وإيقاع الشعر ، وإيقاع الموسيقى . هـــذا التكرار يحدث فيما نسميه في الشعر العربي التفعيلة ، وفي الشعر الغربي المقطع فيؤلف شعراً . فالشعر مشابه للحياة من حيث أنها قاما معاً على التكرار والتسلسل والعودة ، لذلك نرى أن أعذب أنواع الشعر ما عاد بنا إلى مواطن الذكريات في الماضي البعيد في صورة حنين . وقد يكون هـذا الحنين الماضي ، كما يكون للمثل الأعلى ، كما يكون لله . وهـذا هو أروع أنواع الشعر لأنه يتمشى مع الروح الانسانية التي تنشد دائماً السمو والارتقاء. والشعر في نظر علم النفس يخاطب العقل الباطن مباشرة ولا علاقة له بالتفكير فهو في ذلك كالموسيقى وكلاهما يخاطب الذاكرة لأمرين : أولاهما أن ينقش نفسه على صفحاتها نقشاً موسوماً بطابع الخلود ، وهـــذا مما يستدعي تقارب الكلمات وتشابهها في القافيـة ، وثانيها ترتيب النماذج الموسيقية وتسلسل الكلمات واتفاقها لتحدث التأثير المطلوب .

وقد ثار كبار الشعراء أمثال ملتن على القافية وقالوا عنها أنها ألاعيب صبيانية وأن الاساس هو الامر الثاني ، وفي ذلك كثير من الحق ، فالشعر حينما يتحرر من القافية ويعتمد على سمو الخيال ودقة الكلمات يصل إلى ذروة العظمة والروعة وأقرب مثل لذلك القرآن الكريم فهو في موسيقاه الجميلة وسموه ، وصدقه، أروع مثل للبيان ، ثم بعد ذلك شعر ملتن وشكسبير ، والشعر حينما يخاطب الذاكرة يستثير ما اختزنته من ماض وحاضر وحينما يخاطب العقل الباطن فانه يخاطب الاحلام المستقرة فيه . وهذه الاحلام هي نقطة الالهام في الشعر الحديث ، لأن الحياة بشتى مظاهرها ما هي إلا من الاحلام ، وهذا ما يقتضي من الشعر أن يتغلغل إلى أغوار الاعماق البشرية ليصل إلى مستقر الانفعالات. ولذا كان الشعر الكلاسيكي بهذا المنظار على عظمته جامداً كالتمثال الجميل ، ومن هذا القبيل شعر أبي تمام والمتنبي في اللغة العربية وملتن في اللغة الانكليزية . وقد أحس كثير من الشعراء بهذا الجمود فحاولوا أن يلوّنوا التمثال ليكون صورة لنفس الشاعر باعتبار أن النفس الانسانية متشابهة مهما تغيرت، فكانت المدرسة الرومانتيكية وبقيت زمناً حتى جاء الشعر الجديد بتعابيره وألوانه مشابهاً لطبيعة الاحلام . وبما أن الاحلام ما هي إلا رموز ترمز بالصورة لما وراءها . فقد نشأ الشعر الرمزي ذي الموسيقى الخالصة وهو الذي رفع علمه (فرلين) . وأغلب الشعر الحديث من هذا النوع مبني على الاحلام والتحليل النفسي والتغلغل في أعمـــاق اللاوعي والموسيقى والرؤى ثم أضيف بعـد زمن متأخر وجوب تأدية الايقاع الشعري للحالة التي يتصدى الشعر لتصويرها. فقصيدة الاجراس لادجار بو تسمع منها رنين الاجراس وقصيدة هيلير بلوك عن الحان تكاد تسمع منها صوت الكأس ، وفي هذه المظاهر يتجلى التقارب بين الموسيقى والشعر في أتم وجه . فاذا اجتمعت للشاعر النماذج النظرية والنماذج الصوتية فأحسن إخراجها في الفاظ تؤديها تمام الأداء فهو

الشاعر الموفق المجدود .

ونحن لا ننكر على شعراء اليوم شيئاً من هذا التطور ، ولكننا ننكر عليهم أن يفهموه على غير حقيقته ، فيخلطوا باسم فكرة التحرر من القافية بين الشعر الحقيقي والشعر المنثور ، ويخلطوا بين الشعر الرمزي الذي تحدثنا عنه وبين كلام المبرسمين والسحرة الذي لا يفهم منه شيء غير موسيقى الالفاظ . والذي ننكره أكثر من كل شيء ما سبق أن نددنا عليه من محاولة الشعراء أن يرضوا الغرائز البهيمية ليتقربوا من الجماهير ويتزلفوا اليهم فيكون شعرهم في هذه الحالة أفتك من المخدرات وأخطر من الخلاعة ذاتها فيسيئون لأنفسهم وللغتهم وللأمة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . والذي ندعوهم اليه هو العمل على خلق شعر يفيض قومية ورجولة وحكمة وإنسانية ودعوة للخير والجمال بمعناه العفيف . ثم ندعوهم لايجاد شعر قصصي وتمثيلي بالاضافة إلى ما يلحون عليه جميعاً من الشعر الغنائي .

وللشعر المعد للتلحين ميزات لا بد من توفرها لجعله صالحاً لهذه الغاية منها ما يختص بالالفاظ ومنها ما يختص بالمعاني . أما ما يختص بالالفاظ: فحسن اختيارها وملاءمتها للمعاني بحيث تكون العبارة التي يستعملها المؤلف هي أحسن ما يمكن أن يؤدي به المعنى . وللألفاظ صفتان هما : الجزالة وهي أن تكون الالفاظ قوية متينة ذات دوي حينما يصور المعنى وعيداً أو زجراً أو تهديداً أو فخراً وحماسة، والرقة وهي أن تكون الالفاظ لينة ناعمة الجرس حينما يصور المعنى اعتذاراً أو تهنئة أو شكراً أو استعطافاً . وباعتبار أن الشعر يقوم على موسيقى الوزن وهو مؤلف من جمل ، والجمل مؤلفة من تراكيب موزونة ينبغي أن يلاحظ عند النظم ما يأتي :

١ ـ أن تكون ألفاظ الكلام مرتبة وفاق ترتيب المعاني حتى لا تضيع

الفكرة بسبب التعقيد والبعد عن البساطة ، مثال ذلك قول المتنبي :

اليوم عهدكم فأين الموعد ؟ هيهات ليس ليوم عهدكم غد

٢ — الانسجام : وهو عبارة عن سلامة اللفظ من التنافر في لفظه أو جمله ثم مراعاة الاتساق والتوازن في النغم والاتفاق في الجرس بحيث يجري بسهولة وينسرب برقة وعذوبة إلى السمع كقول المتنبي أيضاً :

نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال

٣ — تنويع الاسلوب والانتقال في الكلام من خبر إلى انشاء الى استفهام وهكذا ، كما هو الشأن في أكثر آي الذكر الحكيم .

٤ — انسجام الالفاظ مع المعاني ومناسبتها لها بحيث تجزل الالفاظ إذا كان المعنى فخماً ، وترق إذا كان لطيفاً . فالمعاني القوية ينبغي أن تظهر في أسلوب قوي ، والمعاني السهلة ينبغي أن تظهر في أسلوب سهل .

وأما ما يختص بالمعاني وهي الصور الذهنية التي تقصد من اللفظ فينبغي أن نلاحظ فيها :

١ — السهولة : وهي خلوص المعاني من تكلف التعمق فيها فتكون من (السهل الممتنع) الذي يلاحظ فيه طاقة القراء ومقدرتهم على الفهم . يقول البهاء زهير — من أنسب الشعر للغناء — :

من اليوم تعارفنا وانطوى ماجرى منا ولا كان ولاصار ولا قلتم ولاقلنا

وإن كان ولا بد من العتب فبالحسنى فقد قيل لنا عنكم كما قيل لكم عنا

٢ — الوضوح : وغايته أن يتمكن السامع من إدراك المعنى الذي يريده الشاعر في غير صعوبة ولا مشقة . وذلك يتطلب أن يكون الشاعر نفسه ملماً بما يريد أن يقوله فاهماً له تمام الفهم . وأن يعمل على اظهاره بعبارات شفافة بعيدة عن الغرابة والابهام ، مراعياً في ذلك مستوى فهم من يؤلف لهم .

٣ ــ الترتيب : والغرض منه إيراد الافكار مرتبة حسب أهميتها منتظمة لا خروج عنها ومتسلسلة يؤدي بعضها إلى بعض، متماسكة تحمل المعنى الجوهري بقوة وثبات .

ونريد الآن أن نختتم هذا البحث بملاحظات قيمة من شاعر كبير وموسيقي متقن هو رابندرا طاغور الفيلسوف الهندي وهو يقول : « إن الشعر كلما خف عبؤه عن أنشودة كان ذلك خيراً للأنشودة نفسها ، والغناء لا يبلغ غايته من الكمال إلا إذا أتيح لألوان ألحانه أن تنطلق في حرية وخلوص هنالك تخلب اللب وتصعد بالنفوس إلى ملكوتها العجيب وكما أن المرأة في بلادنا تلتزم طاعة زوجها فتكسب بتلك الطاعة سيطرتها عليه، فكذلك الموسيقى تخدم الشعر وتتمشى طوع كلماته ولكنها صاحبة السيطرة على الاغاني . كنت أحس ذلك كلما قصدت أناشيدي ، وإذ كنت أصوغ هذه الانشودة :

لاتكتمي السر عني إني أحبك جهدي أفضي به ياحياتي أفضي به لي وحدي

وكنت أترنم بها في هدوء أحسست أن ليس من قدر الشعر أن يبلغ بنفسه الغاية التي ينتهي اليها إذا احتواه اللحن) .

٤

التلحين

لقد بينا في بحث سبق أن الموسيقى في بلادنا حائرة بين القديم والحديث وهـذه الحيرة عقبة كأداء تقف في سبيل انطلاقها لتـأدية رسالتها السامية التي وجدت لهـا في الاصل من تهذيب للارواح وترفيه عن النفس وشفاء لبعض الامراض العصبية وتقوية للروح الوطنية إلى غير ذلك ، مما يتطلب من الحكومات العربية أن تراقب الموسيقى في بلادهـا عزفاً وغناء مراقبة جدية ، وأن تستعمل كل ما لديها من وسائل للحيلولة دون تطور الموسيقى تطوراً منحرفاً يخرجها عن كيانهـا ويفقدها سلطانها فتصبح لا هي بالعربية ولا هي بالغربية . ولا شك أن أول مسؤول عمـا يعتورها من نقائص الآن هم الملحنون الذين وجـدوا أنفسهم مضطرين إلى القيام بعمل كبير لتغذية المشتغلين بالغناء فعمدوا إلى اقتباس أو نقل الالحان الغربية في تآليفهم وتلاحينهم ليستروا بذلك ضعفهم الفني وهم لا يشعرون بأن من اعتاد سماع الموسيقى العربية يستطيع أن يقف على سرقاتهم ويعين مكانها من كل قطعة ، حتى إذا شعروا بالفضيحة حاولوا الدفاع عن أنفسهم وادعوا أنهم أرادوا بذلك التجديد في الموسيقى العربية ، والخطأ كل الخطأ فيما ادعوه ، لأن التجديد في الموسيقى العربية يجب أن لا يخرج بهـا عن دائرتها وصبغتها الخاصة ليقلبها إلى صورة مشوهة ، فيها التقليد المشوش وليس فيها شيء من روح الابتكار

والاختراع . ونحن لا يفرحنا أن نجد في الجيل الحاضر من يحبذ هذا النوع من التقليد لأن هـذا الجيل مدفوع بطبيعته المستسلمة الميل إلى كل ما جاء عن الغرب بدون مناقشة وتحكيم للعقل ليميز به ما يصلح لأمتنا وما لا يصلح ، كما أنه بجملته لا يفهم الكثير من أسرار الموسيقى حتى نسايره فيما يهواه ولو كان فيه ظلم للفن . على أن السواد الاعظم من المفكرين يعتقدون معنـا أن الفنون عامة لا تكسبها الشعوب بالتلقين أو بالنقل وإنما تخلقها خلقاً لأنها تعبير عما يجول في أعماق الفنان الذي يصور بفنه جانباً من حيـاة أمته وخصائص بلاده . ونحن لا نريد أن نبقى جامدين على القديم بل لا نرضى هذا الجمود في أية ناحية من نواحي حياتنا لأننا نؤمن بالتطور إلى أبعـد حدوده ، لا سيما ونحن أمة أناخ عليها الاستعمار طويلاً بكلكله فحرمها من عبير الحرية وكبلها بقيود كثيرة منعتها من الانطلاق مع الركب العالمي ، ولكننا نعتقد أن الطريق السوي لهذا التطور أن نبدأ بتراثنـا الموسيقي الذي هو مادة المدرسة القديمة فنسمو به وبأساليبه ونعمد إلى الالحـان فنخلصها مما هي عليه من تكرار معيب ومدٍّ ممل ونواحٍ مقيت حتى تساير روح العصر وتتمشى مع نهضتنا الحديثة ، لا سيما في تلحين الاغاني لأن الملحن لها هو المصور لأحلام الشاعر ، المكمل لفكرته . ولـقد تكون القطعة الشعرية ضعيفة فيكتب لها الخلود لأن ملحناً عبقرياً قد نفخ فيها من روحه قوة فبدل كل ما فيها من ضعف ، وقـد تكون قوية ولكن اللحن الضعيف ألبسها بيده رداء العجز والضعف . فالملحن إذن عليـه يتوقف تفسير ما كتبه الشاعر وابرازه . فاذا كان ملهماً غنياً بالعلم والموهبة ودقة الاحساس ، استطاع أن يرفع ما اضمحل ويحيي ما مات من الشعر .

ونريد الآن ونحن في صدد التلحين وبيان خطورته أن نلفت أنظار الملحنين إلى عيوب قـد يقعون فيها وهم لا يدركونها رغبة منا في مساعدتهم على التحسن

فقد تأبى النفس أن تعترف لذاتها بقصورها في شيء لم ينبها اليه المراقبون :

١ — عدم مراعاة المعاني التي تشتمل عليها القطعة الملحنة بحيث يوافقها اللحن تماماً ، وقد يكون سبب ذلك هو عدم تفهم الملحن المعاني التي تتضمنها القطعة مما لا يساعده على أن يتقمص روحها ويعبر عنها تعبيراً صادقاً بالالحان التي يضعها لها . فيضع للمواقف المحزنة موسيقى هادئة حزينة تناسبها ، وللمواقف المفرحة موسيقى مرحة تعبر عنها ، حتى إذا ما بدأت القطعة بالعزف الصامت قبل مصاحبة الغناء أدرك السامع فهم المعاني والتصويرات التي ستأتي بعدها . وقد أدرك المرحوم سيد درويش أهمية هذه الناحية ولذلك كان إذا أراد تلحين قطعة فيها تصوير لمظهر من مظاهر المجتمع خالط الوسط الذي يساعده على فهمه ومعرفة أسراره قبل البدء بالتلحين .

٢ — عدم اختيار الاوزان الموسيقية التي تناسب البحر أو البحور الشعرية التي نظمت القطعة المراد تلحينها عليها ، ويظهر ذلك أكثر ما يظهر في الاناشيد إذ قد يضطر الملحن إلى مد الحروف لكي يحافظ على سلامة الايقاع اللحني الذي اختاره . وكثيراً ما يغير هذا المد معاني الكلمات ، ولذلك يجب على الملحنين أن يدرسوا بحور الشعر حتى يمكنهم اختيار الاوزان الموسيقية التي تناسب كلاً منها .

٣ — السير في التلحين على وتيرة واحدة بسبب تهافت الملحنين على تقليد بعضهم بعضاً في بعض أنواع التأليف والاهمال لبعضها الآخر مما جعل انتاجهم مقيداً بألوان خاصة لا يتجاوزها، مع أن هناك أنواع من التأليف الغنائي والتأليف الآلي يحسن أن يعرّجوا عليه ولو قليلاً حتى لا يكون تشابه الالوان وتحديدها داعياً للملل منها . من الاول: الموشحة والاوبرا والقصائد والادوار . ومن الثاني المارش ، السماعي ، البشرف ، المقدمة ، التقاسيم ، القطع الوصفية ، اللونجة ،

التحميلة ، البولكة ، المازوركة ، الفالس .

٤ — عدم مراعاة أماكن التنفس في تآليفهم الغنائية مع أهميته بالنسبة للمغني والنافخ على آلات النفخ ومساعدته لهما في ابراز قوة اللحن ، فيلاحظ مثلا في حالة استعمال الطبقات الحادة (الصياح) أن يقرب الملحن أماكن التنفس فيها بعمل سكتات في اللحن تساعد المغني في تأدية النغمات دون أن يصاب صوته بضعف ، كما يفعل عكس ذلك في الطبقات المنخفضة لعدم احتياج اللحن فيها لاجهاد الصوت، وكذلك عدم مراعاة الازمنة الضعيفة في الالحان بحيث يسيرون باللحن كما تشتهي نفوسهم وخصوصاً في البدء به سواء في القطع الآلية أو الغنائية .

٥ — تصرف الملحنين الناشئين في ألحانهم تصرفاً مؤذياً للأذن بخروجهم من نغمة ودخولهم في أخرى لا تمت لسابقتها بصلة مما يدل على عجزهم عن تحليل النغمة الواحدة واخراج ألوان متعددة منها وعدم استغلالهم تصوير المقامات المختلفة في ألحانهم واستعمالها في حالاتها الاساسية فقط ، فينبغي اختيار الاوزان التي يمكن أن يدخل بعضها مع بعض بسهولة وبطريقة معقولة وادخال المقامات مصورة على نفس المقام الملحنة منه القطعة باختيار المقامات المناسبة .

٦ — عدم تخصص الملحن بنوع من أنواع التلحين ليتقنه وينبغ فيه لأنه من الصعب أن يكون الموسيقي مؤلفاً وملحناً ومخرجاً ثم يكون ناجحاً في كل هذه الفروع بل يتحتم أن يكون وسطاً أو دون الوسط فيها ولو تخصص في فرع منها لا يتجاوزه لنفع نفسه وأمته أكثر . فقد مضى العصر الذي كان يفتخر فيه الانسان إذا كان سفراً شاملاً من أسفار العلم وأتى زمن التخصص لأنه أجدى وأنفع.

٥

الأداء

يعد الأداء بين عناصر النهضة الموسيقية في الطليعة لأنه يحمل المظهر الفني وهو الوسيلة التي تعتمد عليها الموسيقى في القاء كلمتها على الجمهور . وقد لا يتم اتصال مؤلف القطعة ولا ملحنها بمن يستمعونها ، ويكون الواسطة بينها وبينهم هو المؤدّي الذي قد يقف أمامهم وجهاً لوجه أو ينتقل إليهم صوته على اهتزازات الأثير. وعلى أدائه يتوقف نجاح الشعر واللحن أو إخفاقها . فقد تكون الأغنية هزيلة في نظمها مريضة في تلحينها فتحيلها شخصية المغني وموهبته إلى أغنية حية تستولي على كل قلب . وقد تكون غاية في اتقان النظم واللحن فيدفعها الحظ السيء إلى مغنٍ فاشل فيكتب لها السقوط ويذبل فيها النظم ويتناثر اللحن أوراقاً صفراء ذاوية . ولذا اعتبرت شخصية المغني هي الطاغية ، وكل ما يمر على الأغنية قبل أن تصل اليه ليؤديها مسخر لخدمته ، فهو كثيراً ما يضع المقاييس والاوزان والقافية للشاعر ، ويحدد نوع الموسيقى واللحن الملحّن . وفي مثل هذه الاحوال قد يتعرض الشعر واللحن كلاهما للمسخ والعجز عن التحليق في سماء الفن والانطلاق في أجواء إلهامه ، مما يجعل منها سلعة تجارية تعرض في الاسواق لتقلبها الأكف بين راغب فيها وزاهد بها فيما إذا كان المغني عادياً في ذوقه وموهبته . أما إذا كان عبقرياً ذا ذوق ناقد يتحسس مواطن الجمال والقبح

في الشعر واللحن وإن لم يكن شاعراً وملحناً ، فيهدي هذين إلى طريق السمو والاتجاه بالقطعة الغنائية المستوى الرفيع ، فلا خطر حينئذ في تدخله وفرض كيانه ومثل هذا المغني نادر الوجود بدون ريب .

ولقد كان موتسارت يجاري أسلوب عصره في بدء اشتغاله بالموسيقى فيساير المغني في ألحانه حتى إذا نضج وعيه الفني أخذ يأبى أن يسمح لأي كان من المغنين في أن يحد من انطلاقه في وضع ألحانه كما يشاء له الالهام . بل كان يضع أمامه الشعر بمعانيه ومراميه وغاياته ويسعى دائماً في إلباسه اللبوس اللائق من الالحان فيصور المعاني بدقة ويوضح القصة ويشرح الوقائع ويعطي كل بيت حقه من الرنين فكانت تخرج ألحانه تصويراً المعاني وتعبيراً عنها ، بالاضافة إلى كونها شرحاً وافياً للحوادث وتمثيلاً صادقاً للوقائع . وهو حينما يضع كل ذلك كان يهيم في لحنه ويحلق في أجواء فنه غير مفكر بالمغني ، حتى إذا انتهى من عمله واطمأن إلى نجاحه وأتى دور المغني تقدم للقيام بأداء انتاجه الضخم من وجد في نفسه الكفاءة والاهلية فحسب واختار لنفسه الدور الذي يستطيع حمله وتلبّس الشخصية التي تتناسب الالحان الموضوعة لها مع منطقته الصوتية ، وهكذا كان يقوم بتلحين (الاوبرا) أولاً ثم يختار هو لها المغنين ويعطي كلاً منهم الدور الذي يناسبه .

وفي هذه الخطة بقي للشعر عظمته والالحان كيانها وبقي للاثنين معاً استقلالهما وخلودهما . وهذا الفتح الفني الذي بدأ به موتسارت أصبح دستوراً لكل من أتى بعده لأنه الوضع الطبيعي الذي ينبغي أن يتبع ، وهو الطريق المؤدي الابتكار والابتداع في كل من التأليف والتلحين ، ثم بالتالي الغناء ليقوموا جميعاً برسالة الفن الاصيلة وهي الكشف عن مواطن الجمال والخير والحق والسعي لايجاد حياة أفضل .

وهنا نرانا مضطرين إلى إشراك جمهور المستمعين في استكمال عناصر النهضة

الموسيقية فنتطلب منهم أن يقدروا القيمة الفنية والادبيـة في كل ما يعرض عليهم ليكرموا الفنان الذي يؤدي لهم خدمة ويقوم لهم برسالة أقلها امتاع نفوسهم وتهذيب أخلاقهم، ويظهروا زيف الفنان الخادع الذي يخونهم في استهوائه غرائزهم ويخدعهم في نقلهم بفنه لأجواء بهيمية قـد تلزمهم لفترات معدودة حتى إذا نفقت بضاعته تركهم في منتصف الطريق يشكون ظمأ الروح وضياع الحقيقة وخسران الوقت . إن هذا الجمهور الناقد اليقظ هو ما تفتقر إليه بلادنا اليوم ، ففي وعيـه الصحيح وذوقه الرفيع أكبر رقابة على هؤلاء الذين يسيئون إليه ويدلسون عليه باسم الفن .

الفصل السابع

(١) ألوان من الشعر غناها العرب :

١ – الموشح . ٢ – الموال . ٣ – الزجل . ٤ – النشيد. ٥ – الاغاني الشعبية . ٦ – الدور. ٧ – القصيدة. ٨ – المنولوج والديالوج والتريالوج. ٩ – أغاني المناسبات والأعياد . ١٠ – الاوبرا والاوبريت .

١

ألوان من الشعر غناها العرب

عرفنا فيما مضى كيف بدأ الغناء عند الأمة العربية بالترنم بالشعر في العصور الاولى وكيف تطور مع التاريخ حتى أصبح حرفة مستقلة قائمة بذاتها تقرب صاحبها من الملوك والأمراء وتكسبه منحهم وعطاياهم ، وتجاه هـــذا التشجيع أكب المغنون على العلوم كي يتفوقوا بها وأقبلوا على حفظ الشعر لا سيما ما يخص منه الغزل والتشبيب لكي يغنوا به في حضرتهم، وبذلك ارتفعت مكانة الشعر الغنائي خاصة والأدب العربي عامة . وتسامع الناس بشعر جميل بن معمر يغنّى لشهرته في الغزل قبل الاسلام، وكذلك شعر عمر بن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات ومجنون ليلى وكثير عزة وابن ميادة وذي الرمة وغيرهم من الشعراء الذين أحبوا وعشقوا وصوروا حبهم بشعر رقيق هو أصلح الشعر للغناء. وقد جمع هذه الاغاني مع نبذة تعرف بها وبأصحابهـا أبو الفرج الاصبهاني في كتابه « الاغاني » وهو كتاب قيم مشهور .

والطرز المستعملة في موسيقى التطابق الصوتي في الغناء العربي عندنا الآن مايلي :

١ الموشح :

وأول ظهوره في الاندلس حينما كان يحكمها العرب ، وبعد أن انتقلت اليهـا

الموسيقى من المشرق عن طريق زرياب المغني المشهور أيام خلافة عبد الرحمن الثاني كما ذكرنا من قبل والسابق إلى ابتداعه مقدم بن معافر من شعراء الامير عبد الله المرواني ثم تبعه أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد وبزها فيه عبادة القزاز شاعر المعتصم وهو من ملوك الطوائف . وكان الموشح مظهراً للابداع والتفنن عند الشعراء يغلب على موضوعه الغزل ووصف مجالس الخمر والطبيعة حتى طغت عليه العامية في آخر عهده فافسدته ومن أشهر الوشاحين الاعمى التطيلي والطبيب أبن باجه واليه تنسب أكثر لحون الاصوات التي كان يتغنى بها في الاندلس ثم انتقل إلى المشرق ولكنه لم يبلغ هنا المكانة التي بلغها هناك إذ دخله الشيء الكثير من التكلف ومن أول المحسنين له من المشارقة هو ابن سناء الملك وجاء بعده كثير من وشاحي مصر والشام ومن أشهرهم الشاعر الموسيقي شمس الدين الدهان . والذي حدا بالاندلسيين لابتكار الموشح رغبتهم في أن يخضعوا الشعر للنغم حتى يجري هذا حراً طليقاً لاتقيده أوزان الشعر فتمنعه من تصوير العواطف بصدق ، خلافا لما كان عليه المشارقة في إخضاع النغم للشعر. لذلك خرجوا عن الموازين الشعرية المعروفة ولم يتقيد وابها لاسيما وانهم رأوا أن بعض شعراء العصر العباسي قد تصرفوا بالاوزان كمسلم ابن الوليد وبعضهم تصرفوا بالقوافي كبشار بن بردوا بن المعتز وأوحى لهم ذلك بابتكار الموشح الذي يتصرف في الوزن والقافية معاً فهو مرة يجري على بعض أبحر الشعر المعروفة كبحر الرمل مثلا ومن ذلك موشح ابن سهل الاسرائيلي وابن الخطيب وابن زهر وأحياناً تبتكر له أوزان جديدة تختلف باختلاف ذوق الوشاح يقول ابن زهر من بحر الرمل:

أيها الساقي اليك المشتكى ... قد دعوناك وإن لم تسمع

ونديم همت في غرته ... وبشرب الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق اليه واتكى وسقاني أربعاً في أربع
ما لعيني غشيت بالنظر انكرت بعدك ضوء القمر

فاذا ما شئت فاسمع خبري

عشيت عيناي من طول البكا وبكى بعضي على بعضي معي

ثم الدوبيت : وهو كموشح صغير في تلحينه ودوبيت كلمة فارسية مركبة من (دو) بمعنى اثنين عدداً و (بيت) بمعنى البيت في الشعر، وإذن فما ينظم للغناء من هذا النوع إنما هو عبارة عن بيتين منظومين يكثر ان يكونا من ابحر الشعر السهلة مثاله :

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل فما اختاره مضنى به وله عقل
وعش خاليا فالحب راحته عنى فاوله سقم وآخره قتل

وقد يتكون الدوبيت احياناً من زوجين أي أربعة أبيات ويقال له مردوف مثل :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء مادام ذا عين يقلبها في أعين العين موقوف على النظر
يسر مقلته ما ضر مهجته لا مرحباً بسرور جاء بالضرر

ويشترك في توقيع الموشح والدوبيت جميع الفرقة من آلات ومنشد ومصاحبين ويشترط فيه ان يلتزم ضرباً مخصوصاً من الايقاع وان يكون من نفس اللحن الذي منه الفاصل الموسيقي (الوصلة) وقل أن يخرج عنه ، وقد يتغير ضربه في الحركة الختامية إلى إيقاع أسرع يشعر بالختام .

٢ – الموال

يرجع في تاريخه إلى عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد والدافع لابتكاره انه عندما قوي سلطان البرامكة ولعبت الفتن أدوارها الخطيرة حتى أمر هارون بقتل جعفر والفضل البرمكي ومزق اسرتها جميعها شر ممزق حرّم على الناس رثاءهم ولو ببيت واحد من الشعر وفرض أشد العقوبات على من يقول فيهم شيئاً .وكان لجعفر جارية مخلصة طواها الحزن على مصابها في مواليها فتوصلت إلى وضع (الموال) وهو على غير غرار الشعر الموزون المقفى المضبوط ليحمل عنها رثاءها بدون أن يؤخذ عليها فيه شيء ، فكان منها الموال الاول مخاطبة به دار العز التي عاشت فيها مع مواليها وفي ظلهم اثناء سلطانهم وسطوتهم :

يادار أين ملوك الأرض ؟ أين الفرس ؟
أين الذين حموها بالقنا والترس ؟
قالت تراهم رمماً تحت الأراضي الدرس
سكوت بعد الفصاحة السنتهم خرس

ثم اتبعت انشادها لهذه الابيات بصراخها قائلة : واموالياه ! يامواليا ولهذا سميت بالموال ، وحذا حذوها باقي جواري وموالي ومحبي آل برمك فقالوا في رثائهم الشيء الكثير. ثم أخذ الموال عن هؤلاء المؤلفون وتباروا فيه وتفننوا فأجادوا ، ومن ثم تعددت انواعه وأوزانه في صيغ مختلفة مبتدئة بالمربع الذي مر نموذجه فالمخمس وكان يجعل فيه بين الشطر الثالث والرابع شطر مخالف للقافية . فالمسبع فالنعماني فالمواويل الخضر والحمر .وقد استساغ الناس الموال على اختلاف ألوانه وأقبلوا عليه إقبالا عظيما لما يتوفر فيه من السهولة والانسجام والقرب من اللغة العامية والمعاني المثيرة للحزن وغني المؤلفون بالجناس في قوافيه

والتوريه في معناه وهما من المحسنات اللفظية في علم البديع من علوم البلاغة .

وقد أدخل علماء العروض (المواليا) في فنون الشعر الجارية على السنة العامة وهي أربعة المواليا والكان كان والقوما . والزجل .

فأما الكان كان فتنظم عليه الاقاصيص والحكايات غالباً، وما كان في الماضي مما يحتوى على عبر وذكريات ووزنه (مستفعلن فاعلاتن مستفعلن مستفعلن) ولا تلتزم فيه الا قافية الشطر الرابع فقط .

وأما القوما فأول من نظمه المسحرون لايقاظ الناس في رمضان وكانوا ينادون بعضهم بعضا (قوما لنسحر قوما) ومن ذلك سمي بهذا الاسم ووزنه (فعولن فاعلن فاعلن فاعلان) .

٣ – الزجل :

أنواعه كثيرة ويدخل فيها العتابا والمعنّي والقوّالي والدبكة ، وتدور أكثر مواضيعه حول المرأة والكرم والشجاعة ، وليس له وزن معين ، ولا لقوافي أشطره قاعدة متبعة ، وإنما قائده في ذلك الذوق فقط ، ذوق الزجال وإحساسه الموسيقي والتصويري، وهو إلى اللغة العامية الصريحة أقرب منه إلى اللغة الفصحى ولذا فهو يختلف باختلاف المناطق العربية ولهجاتها .

والموال من حيث تلحينه وغنائه كالليالي التي ينفرد بها المغني منوعاً في كلمة يا ليل مع عدم السير على ضرب مخصوص من حيث استصحاب الآلات ولا سيما القانون ، وقد يزيد بعضهم ملء سكوت المغني بالعزف الصامت المسمى باللازمة ولا يشترط في الموال أن يسير على ضرب مخصوص ولكنه يكون من لحن الوصلة. أما الزجل فيختلف غناؤه وتلحينه باختلاف أنواعه وباختلاف بيئته ولهجتها الخاصة لأنه مرآة الشعب الذي يخرج عنه .

٤ – النشيد :

هو عبارة عن مقطوعة شعرية تؤدي غالباً معنى الحماس في أغراض شتى كالأناشيد القومية والوطنية التي تحبب الانسان بوطنه وأمته فيرخص في سبيلها كل شيء ، وكالأناشيد التي تؤلف لتخليد ذكر العظماء والمجاهدين وحفز الهمم على الاقتداء بهم ، وكالاناشيد التي تكون رمزاً لهيئة من الهيئات أو جماعة من الجماعات يشعر باتجاهها ويدل عليها . وقد يكون النشيد من النوع التعليمي الذي يلقن لطلاب المدارس ليحببهم بالمدرسة مثلاً أو بالوالدين أو بغير ذلك من الامور الجليلة . ولهذا كان من المحتم أن يكون النشيد في ذاته طريف المعنى سامي اللفظ سلس التركيب ، ترتاح الأذن لترديده وتهتز القلوب لسماعه ، كما يجب أن يكون تلحينه دقيقاً مطابقاً لمقتضى حاله ممثلاً لغرضه مبرزاً لمعناه ، يوقد في النفوس لهيب الحماس وعنفوان القوة .

والنشيد طريق من طرق الاصلاح المجدية ونوع من التربية الحديثة التي تعتمد عليها الامم الراقية في توجيه جيلها الصاعد، فيجب علينا الاهتمام به وتعميمه في المدارس والمصانع والمنشآت المختلفة وفي كل عيد يجمع الامة ، ففية تجديد للنشاط وحفز للهمم وتذكير بالمعاني الوطنية السامية ودعوة للاتحاد والنظام وحض على الاخلاص للوطن العزيز . وإذا كان لأنواع النشيد عامة هذا الشأن الجليل فللنوع القومي منها شأن أجل لأنه يعبر عن مجد الامة وعظمتها ويترجم عن آمالها ومثلها العليا . فهو شعارها المميز عند كل مناسبة وفي كل اجتماع عام . وهو ممثل الدولة في داخل أرض الوطن وخارجه في الاعياد القومية والمواسم التاريخية والمباريات الدولية وغير ذلك من المناسبات .

والاناشيد القومية قديمة العهد في التاريخ ، عرفتها الامم القديمة كمصر

وفينيقيا والرومان والاغريق ، وكانت تستقبل بها نساء ورجالاً قوادهـا الفاتحين وجيوشها الظـافرة . والاناشيد القومية في عصرنا هذا يراعى فيها أن تكون مشتملة على صور من الامجاد والذكريات التي تعتز البلاد بهـا ، وأن تكون ممثلة لما يشخّص الامة ويميزها عن غيرها ويسمو بها فوق الجميع. فهي إذن صورة حياة الامة في جميع مظاهرها وتمثيل للبلاد في كل عناصرها ، ولذلك فهو يغلب أن يكون نتيجة انبعاث فطري والهام وطني ينطلق به احساس الشعب دون تكليف أو إيعـاز أو إقامة مسابقات فنؤمن به ونتقبله ولو أتى من مؤلف مغمور . فنشيد المارسيليز مثلاً الذي دوت به الجماهير في أرجاء فرنسا لم يكن مؤلفه من مشاهير الشعراء أو الموسيقيين ، بل كان مهندساً حربيـاً تشبع بروح الجمهورية وعاش في وسط نيران الثورة ، فانتظمت أحاسيسه شعراً ثم استحالت موسيقى ، فكان من ذلك نشيد المارسيليز المشهور .

٥ — الاغاني الشعبية :

ويراد بهـا تلك المقطوعات التي تجري على ألسنة الشعب وترددها الجمـاهير مطلقة على سجيتها وتتناقلها الاجيال فتصبح تراثاً شعبياً قوميـاً تفنى معه شخصية الشاعر والملحن حتى يكادا لا يعرفان وكأنّ الشعب هو الذي نظم بمجموعه ولحن ليترجم عن أحاسيسه ويصور أساليب معيشته . ومثل هـذه الاغاني هي ألصق أنواع الغناء بالأمة وأقربها إلى مزاجها العام لأنها صادرة من أعماق حياتها مؤثرة في مختلف طبقاتها، ولو كانت أحياناً أو كثيراً من الاحيان بسيطة الموضوع والصياغة والتلحين، فحسبها أنها تراث الجميع بدون استثناء فهي منهم ولهم . من أجل ذلك فان الحكومات الراقيـة تولي الاغاني الشعبية في بلادها أوفر عنـاية وأكبر اهتمام ، فتحافظ عليهـا وتنقب عن المفقود منها وتعاملها تمامـاً كما تعامل

نفائس الآثار . ولا عجب في ذلك فالاغاني الشعبية من دواعي سعادة الجمهور وإقباله على الحياة بجد وتفاؤل ورغبة في الانتاج بما تشيع في حياته من أجواء المرح والسرور التي تبعد عنه السأم من العمل والملل من سير الحياة على وتيرة واحدة ، فهي بمثابة السلوى الخالدة التي يدافع الناس بها اليأس ، ولذلك كانت من مقاييس الحضارة الانسانية في الامم والشعوب .

وفي الامة طوائف لا ينتظم لها أمرها إلا بطول الدأب وشدة الصبر والاناة مما يجعلها بحاجة ماسة للاغاني تخفف بواسطتها شيئاً من ضجر استمرار العمل ومرارة الصبر ، من ذلك: أغاني البحارة، أغاني الجيش، أغاني الفلاحين، أغاني الشحاذين ، أغاني الحب ، أغاني الاطفال ، أغاني الرعاة ، أغاني رمضان ، الخ .. بل نستطيع القول بأن كل ذي عمل يتغنى في عمله مهما كان يسيراً ولو عبر عن ذلك بالصفير الذي يخرج من شفتيه بدون أن يشعر . وقد عبر الشاعر العربي القديم عن هـــذه الحقيقة بقوله :

ولا تشرب بلا طرب فاني رأيت الخيل تشرب بالصفير

فلماذا ونحن في عصر الجد والعمل وكثرة المخاوف والهموم لا نستعين بالاغاني على تجميل حياتنا ؟ ولمَ لا يكون لنا مثل ما للأمم الراقية من الاغاني الشعبية التي تحببنا بالحياة وبالعمل الذي يأخذ منا أكثر أيام هذه الحياة. قال حكيم الصين كونفوشيوس الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد « إن أردت أن تتعرف في بلد نوع إدارته ومبلغ حظه من المدنية فاسمع موسيقاه » .

٦ — الدور :

وهو من أنواع الزجل الغزلي العامي ويتوسطه قطعة من الجزوء يسهل على المغني التنويع فيها والتلاعب بألفاظها وإدخال الأخذ والرد عليها ويعرف باسم

(الهنك) ويطيل المغني الادوار بما يدخله عليها من آهات ليست واردة في ألفاظ الدور . والاصل في الدور أن يسير على ضرب مخصوص يتغير في (الهنك) وعند الختام ولا يخرج الدور كله عن اللحن المختار للوصلة إلا على سبيل التحويل . وتشترك الجوقة جميعها في توقيع الدور وينفرد المغني ببعض أجزاء الهنك والآهات. ويدخل في الدور الطقطوقة : وهي عبارة عن دور صغير الهواء يتركب من قطعتين (مذهب) أو مدخل وعدد من الاغصان أو الشروح تبتدئ الفرقة بغناء المذهب وينفرد المغني مع الآلات بغناء أحد الاغصان بعدها وهكذا، حتى ينتهي عدد الاغصان وتنتهي القطعة باعادة المذهب كما ابتدأت بالشعر المحبوك الطرفين والمغني في الطقطوقة لا يشترك مع المساعدين في غناء المذهب بخلاف الدور .

٧ — القصيدة :

وهي قطعة شعرية باللغة الفصحى تدور حول الغزل والنسيب والشكوى غالباً ، ومنها ما هو صوفي ينشد في الاذكار والموالد. والاصل في القصيدة أن لا يصاحب منشدها آلات أو مساعدون وأن يتصرف المنشد في غناء الالفاظ كما يشاء على أن يلازم اللحن المختار للوصلة ويكون خروجه عنه على سبيل التحويل فقط .

٨ — المنولوج والديالوج والتريالوج :

أما المنولوج فقصة زجلية أو شعرية يلقيها شخص واحد . والديالوج محاورة زجلية أو شعرية بين شخصين . أما التريالوج فهي محاورة زجلية أو شعرية بين ثلاثة أشخاص وتجري الانواع الثلاثة بمصاحبة الآلات .

٩ — وهناك أيضاً طرق الذكر والمولد والتراتيل الدينية، وأغاني الزفاف،

وأغاني الحجاج ولكلٍ منها طريقة خاصة في الغناء والتلحين.

١٠ — وهناك الاوبرا والاوبريت وهي مستحدثة في الغنـاء العربي ومن الطراز المتعدد الاصوات .

وبذلك نرى أن الاقدمين من موسيقيين وأدباء قد تركوا لنـا ذخيرة قيمة تعبر عن كافة أغراض الحياة وصورها وتركوا لنا باب الاجتهاد مفتوحاً لنستنبط ونولّد ونبتكر ما يوافق الزمن الذي لا يكف عن السير. فأين هذه الالوان ؟ وأين التجديد فيها ، والزيادة عليها ، لنشعر بأننا نسير في موسيقانا إلى الامام ؟؟

الخاتمة

نداء الى الاذاعات العربية

نداء الى الاذاعات العربية

نوجه الآن — ونحن على اهبة الانتهاء من كتابنا - نداءنا الحار الى اذاعتنا بصورة خاصة ثم الى سائر اذاعات البلاد العربية بصورة عامة نناشدهم فيه الرفق بهذه الامة التي تهيم على وجهها في سبل متفرقة لا يربطها رابط ولا يوحّدبينها غاية . نناشد القائمين على هذه الاذاعات ان يحسنوا استغلالها في النهوض بهذه الامة وتثقيفها والارتفاع باذواقها ومعنوياتها وأن يتوجهوا بها جميعاً نحو هدف مشترك فيه احياء كنوزنا القديمة وشحذ مواهبنا المكبوتة ومعالجة ما انحرف من أذواقنا بتأثير الكابوس الاجنبي الذي جثم طويلا على صدر الشرق .

فما لاريب فيه انه قلما ظهرت القيمة الجلية لشيء من المخترعات الحديثة بالصورة التي تجلت بها قيمة الاذاعة التي انتشرت في انحاء العالم ، وعم نفعها ونفوذها جميع الناس ،لان من يذيع كلاماً او فناً فهو يخاطب الدنيا كلها في لحظة ويختصر الزمن في لمحة . فلهذا الاعتبار الهام، وباعتبار ان المستمع لصوت اذاعة من اذاعات الامم يستطيع ان يحكم على تلك الامة الممثّلة في هذه الاذاعة فنياً وادبياً وعلمياً ورياضياً وسياسياً ، بل وفي كل ناحية من نواحي نشاط هذه الامة ومقدراتها عـــدت الاذاعة في الدولة في مقدمة الامور التي ينبغي ان يتوجـه اليها الاهتمام والعناية.

فالخطيئة الصغيرة الصغيرة التي تصدر عنها تعتبر فضيحة كبرى في حق البلاد التي تتكلم الاذاعة بلسانها لانها خطيئة لايسدل فوقها ستر ولا يقف دون شيوعها حدود. ولذلك فان الحكومات الراقية تختار لها اوسع الموظفين ثقافة واصدقهم عملا واحسنهم اخلاقاً وارفعهم ذوقاً واحرصهم على ابراز وجه البلاد بصورة تليق بكرامة البلاد ، لكي لايجوز عليهم الانتاج الرخيص ولا تخدعهم البهارج الزائفة ولا تسيرهم المطامع والاهواء فيقربون من شاءوا ويبعدون من شاءوا بدون ان يحكّموا المصلحة العامة ويقدرو اعظم المسؤولية الملقاة على عاتقهم، فتموت المواهب الغضة وتذوي اوراقها وتنتعش الاحطاب اليابسة التي ملّتها الحياة وضاقت صدراً بانتفاخها الكبير .

ان الاذاعة دعاية الدولة وسمعتها في الخارج والواسطة بينها و بين الشعب، وبينه وبين الشعوب الاخرى فهو - عن طريق الاذاعة - يعطيها ماعنده من فنون وعلوم وآداب ويأخذ عنها مثل ذلك، ولهذا حرصت الحكومات الراقية على احتضان محطاتها والسهر على توجيهها التوجيه النافع في السلم والحرب، فحيثما تحققت الفائدة المرجوة ووجدت الكفاءة الصالحة فسحت صدرها للقائها دون ان تطغي عليها الاسماء الضخمة وتخدعها الجثث الكبيرة والتمثيل الزائف من الذين يعملون دائماً لاخماد جذوة النبوغ الفني الذي قد يستتر بالاطمار ويختبيء وراء التواضع استئثاراً منهم وانانية وغروراً ، ولهذه الاسباب ايضاً حرصت الحكومات الراقية على تقييد الاذاعة تقييداً يبعد عنها عبث العابثين واستهتار المستهترين وتدجيل الدجالين لانها هي مصدر التوجيه وجدير بمن يتصدى للتوجيه ان يكون قدوة للاخرين في كل خلق كريم وتصرف عظيم .

إن الاذاعة رائد الفكر في هذا العصر لاسيما في الامة الامية، لانها تنقل المعارف عن طريق السمع فيستوي لديها الامي والقاريء والعامي والمثقف

والضرير والبصير والبادي والحاضر ،وللاذاعة المقام الاول في السياسة الدولية اليوم . والامةالراقية تتخذها أداة فعالة لتوجيه الرأي العام فيالداخل، وتبصير العالمبحضارتهافيالخارج،وهيببرامجها الادبية والفنية تهذب النفوس ،وبمحاضراتها العلمية تثقف العقول ، وبما تذيعه منموسيقى وغناءتفرج الكروب وتخفف من مصائب الدهر .

والاذاعة ديمقراطية وليست ارستقراطية فهي لجميع الطبقات أولا ، وللطبقة الكادحة بشكل خاص، فهي تلبي حاجات هؤلاء في البيت والحقل والمصنع والثكنة والملعب . ولما كانت الموسيقى وبقية الفنون تأخذ اكثر أوقات الاذاعة كانت مقياس الهبوط والارتفاع في رسالتها التوجيهية . ولذا فنحن نناشدها ان ترفع من مستوى هذا اللون من برامجها بصورة خاصة تأليفا ومعنى وغاية ليقوم بمهمته الحقيقية التي من أجلها وقف له وقت معينطويل،وإلاّ فرجاؤنا أن تقتصد قليلا فيه لتتفرغ بشكل أقوى للارشاد والتثقيف ،وهو الغرض الاول من وجود الاذاعة . فبلادناالان تسير في دور البناء، والثقافة والعلم من الحاجات الاساسية لها في هذا الظرف ، والحاجات الاساسية مقدمة على الحاجات الكمالية في جميع الاحوال. والامة المتخلفة عن ركب الحضارة الى حد ما ،والتي نهضت لتلحق بغيرها من الامم السباقة تحتاج قبل كل شيء الى الدليل الذي يكشف لها الطريق بالعلم، اكثر مما تحتاج إلى المغني الذي يرفّه عنها بالالحان . والعلم جزء من حياة الانسان فعدم وجوده نقص في حياته ولكن اللهو ترف والانسان لايحتاج اليه الا بعد ان يستكمل جميع ماتتطلبه الحياة من اسس البناء .

المشتمل

الصفحة	الموضوع
١	المقدمة
	الفصل الاول
٧	الفنون تدعو للفضيلة
٩	رسالة الفنون
	الفصل الثاني
٢١	التصوير والنحت
٢٥	السينما والمسرح
٣١	الأدب العربي كفن
٣٥	الموسيقى والشعر
	الفصل الثالث
٤١	الاسلام والفنون
	الفصل الرابع
٥٥	تعريف بالموسيقا
٦١	الموسيقا في تاريخ العرب

الصفحة	الموضوع
٧٣	فضل العرب على الموسيقا
	الفصل الخامس
٨١	الموسيقا في خدمة البشرية
٨٧	من هم الموسيقيون حقاً ؟
٩٣	من المهد الى اللحد
٩٧	سحر عجيب لا يقاوم
١٠٢	ألحان في الطقوس الدينية
١٠٨	كيف تنساب الانغام
	الفصل السادس
١١٣	الدنيا موسيقا وشعر
١١٨	الأغاني مرآة الشعب
١٢١	التأليف الشعري للغناء
١٢٦	التلحين
١٣٠	الأداء
	الفصل السابع
١٣٥	ألوان من الشعر غناها العرب
	الخاتمة
١٤٧	نداء الى الاذاعات العربية

التصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨	١٨	نقلدهم	نقلده
١٧	٢	بغتة	بفنه
٢٢	١٢	وظيفة ، ما	وظيفة ما ،
٢٧	١٢	مرآة ، لهم	مرآةلهم،
٣٦	٧	فهم	فهمه
٤٤	٥	ومن الجنة	ومن الجن
٤٩	٧	متفقة	متفقه
٤٩	٢١	يغني	يغني
٦٢	٩	الغاء	الغناء
٦٣	١٠	الترجيح	الترجيع
٦٥	١١	الهامكة	الهالكة
٧٠	٧	وفليح	وفليج
٧٣	٨	خاصاً	خامساً
٨٤	١٠	راحه	راحة
٨٧	١١	هذ	هذه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨٩	١٥	بذوب	يذوب
٩٧	١٤	بنبراث	بنبرات
١٠٦	١٦	اعراب	اغراب
١١٣	٧	كانا	كانوا
١٢٤	٣	اللفظ	الكلام
١٢٦	١١	العربية	الغربية
١٢٧	١٩	ما اتضح	ما اتضع

دار اليقظة العربية
للتأليف والترجمة والنشر بسورية

تقدم قريباً

معلم الصحافة

أول كتاب عربي في موضوعه

يكشف لك أسرار الصحافة ، ويزودك بالخبرة الواسعة في :

تنظيم الاعمال الصحفية وفنونها — الادارة — التحرير — المراسلة — تصيّد الاخبار — التعليقات — الاستعراضات — النقد — فن اخراج الصحف — فن تصميم الاعلان

ويشق لك طريق النجاح في معالجة كتابة :

المقالات — الرواية — المسرحية — القصة — الاقصوصة — الحكاية — الشعر — الترجمة — الشعر المنثور

كتاب يجعل منك صحفياً تعتز به أمته ، وكاتباً يهز الجماهير بقلمه

كتاب لا يستغني عنه صحفي ولا طالب ولا رسام

تأليف

محمد خير الدرع

مدرس اللغة العربية في ثانويات دمشق

خريج مدرسة الصحافة في القاهرة

دار اليقظة العربية

للتأليف والترجمة والنشر بسورية

مؤسسة علمية ثقافية أسست عام ١٩٣٩ بدمشق

يعضدها

نخبة من العلماء والأدباء والمفكرين

- هي الدار الأولى بسورية لطبع ونشر جميع الكتب العربية والاجنبية وتوزيعها في أنحاء العالم .
- مؤسسة ثقافية سورية تعنى بتلقيح الفكر العربي بالفكر الغربي .
- رسول من رسل الثقافة تيسر للقارئ العربي الاطلاع على أمهات الكتب في العالم .

وسيلتها أن تتيح لك اقتناء مكتبة عربية بلغتها غربية بأفكارها .

غايتها أن تقدم ترجمات كاملة أمينة بلغة سهلة صحيحة تهدف الى الحفاظ على تراث الانسانية في الآداب والعلوم والفنون .

- مركز التقاء بين الفكرين الغربي والشرقي يتيح للقارئ العربي أن يكون على اتصال دائم بحضارة الفكر في العالم .
- شعارها : المعرفة للجميع بأسعار ترضي الجميع .

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 074489236